روايات الهلال

اعترافات سيد القرية

محمد جبريل



العدد ٥٤٦
يونيه ١٩٩٤ ● محرم ١٤١٥ هـ
NO . 546 - JU 1994

روايات الهلال
Rewayat Al Hilal



سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمى

تصدر عن
مؤسسة دار الهلال



رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة
عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير
مصطفى نبيل
سكرتير التحرير
محمود قاسم



ثمن النسخة

سوريا ١٠٠ ليرة ـ لبنان ٦٠٠٠ ليرة ـ الأردن ٢٤٠٠ فلس ـ الكويت ١٢٥٠ فلس السعودية ١٢ ريال ـ تونس ٢,ـ دينار ـ المغرب ٢٥,ـ درهم ـ البحرين ١,٢٠٠ دينار قطر ١٢,ـ ريال ـ دبى / أبوظبى ١٢,ـ درهم ـ سلطنة عمان ١,٢٠٠ ريال ـ غزة الضفة / القدس ٢,ـ دولار ـ لندن ١,٥٠ جك
تحريرا فى ١٩٩٤/٦/١٢

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٣٦ جنيها فى ج . م . ع . تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية ـ البلاد العربية ٢٥ دولارا ـ أمريكا وأوربا وآسيا وافريقيا ٣٠ دولارا ـ باقى دول العالم ٤٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال .. ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول : الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت : ٤٧٤١١٦٤
الادارة : القاهرة ـ ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب : ٦١ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١ ـ تلغرافيا المصور ـ القاهرة ج . م . ع .
تلكس : TELEX 92703 hilal u n
فاكس : FAX 3625469

إعترافات

سيد القرية

بقلم

محمد جبريل



دار الهلال

الغلاف للفنانة :
سميحة حسنين

الوفـاة

مات المواطن زاو مخو ، سيد قرية "ونيس" القريبة من مدينة "آثيت تاوى" . انطلقت من بيته صرخة ، أعقبها بكاء ونشيج ، وأقدام مهرولة من ـ وإلى ـ داخل البيت . طافت النسوة حول القرية ، يبكين ، ويندبن ، ويرخين الشعور ، ويعرين الأثداء ، ويلطمن الرءوس بالأيدى ، ويصبغن الوجوه بطمى النيل .. فعرف أهل القرية أن زاو مخو قد مات .

قدمت الندابات بطبولهن وآلاتهن ، يوقعن عليها الأنغام الحزينة ، سبعين يوماً ، المدة التى ظل فيها زاو مخو بين أيدى المحنطين ، وأمضاها أهل الميت فى حزن وبكاء ، يخرجون مرتين كل يوم ، يطوفون بأنحاء القرية ، يشيدون ـ فى كلمات مؤثرة ـ بما كان عليه الراحل من أخلاق فاضلة ، ومآثر ، واعتراف بفضل الآلهة . يلتزمون الخشوع ، ويحرمون تقديم القرابين ، ويمتنعون عن إقامة الولائم والحفلات . يمتنعون كذلك عن تناول اللحم والأطعمة المطهوة على النار ، وعن تناول النبيذ والمسكرات .

قدم أهل الميت للمحنطين كل ما يحتاجونه : الكتان من نسيج آلهة النسيج "تايت" ، والزيت من شجر الأرز ، والبخور ، والمر ، وزيت الزيتون ، واللفائف . وتناوب أفراد العائلة الوقوف خارج "البيت الطيب" الذى توسدته الجثة .

ارتدى المحنطون قناعى حورس وتحوت . استخرجوا الأحشاء من الجثة . وضعوها فى قدور خاصة ، تحت حماية الأرواح الطيبة ، فلا تثير صورة الأحشاء مشاعر الكدر للراحل العزيز . أربع قدور ، يحرس كل منها أحد أبناء حورس الأربعة : أمست ، وحابى ، ودا موتف ، وقبح سنوف . عالجوا جسد زاو مخو بالنطرون والقار ، حشوا الفم والأذنين بالكتان المغموس فى الراتنج المنصهر ، ودهنوا الجسم بزيت خشب الأرز ، ودعكوه بالمر والقرفة والقاسيا . ثم لفت سائر الأعضاء فى الكتان . إنه هو النسيج الذى كفن به الإله أوزوريس عند رحيله إلى الغرب . غزلته ، ونسجته ، وبيضته ، أختاه ايزيس ونفتيس . ثم وضع المحنطون على الوجه قناعاً من الكتان والجص ، فبدا كأن الموت لم يمسَسْه .

وضعوا جسد الراحل إلى الشاطىء الآخر ، فى تابوت من الأبنوس . رأسه من اللازورد ، وغطاؤه فى صورة السماء . أضافوا رقية كى لا تنزع منه قواه السحرية ، عند نزوله إلى العالم السفلى . وشدد الكاهن الجنازى على وضع "كتاب الموتى" فى الكفن ، بالقرب من قدمى الميت . ورقة بردى كبيرة تحمل عشرات التعاويذ التى ربما ساعدته على تبرئة نفسه - يوم الحساب - أمام محكمة الآلهة .

ذبح أهل زاو مخو - قبل خروج التابوت - عند باب البيت بقرة كبيرة ، حملوا أجزاء منها لتوضع فى القبر ، وحطموا - أسفين - جراراً حمراً ، عند مغادرة الجنازة البيت ، فلا تعود الروح ثانية ، وإن ظل السؤال يشغلهم ، لأيام تالية : هل لا تزال الروح موجودة في البيت ، أو أنها صعدت الى السماء ، عبر السلم العلوى العظيم ، أو بالقبض على ذيل البقرة السماوية ، أو أنها حلقت كطائر ، أو حملها دخان البخور ؟

أغلق الكهنة - تقديراً لمشاعر أهل الميت - أبواب المعبد ، وحرموا تقديم الضحايا للآلهة .

نقلت المومياء إلى المقبرة فى تابوت ، على قارب - فوق زحافات - يجره رجال وثيران . الموكب طويل ، يسكب اللبن أمامه . يتبعه الكهنة ، يحرقون البخور ، ويرتلون الصيغ الجنازية ، فالأقارب من الذكور وأصدقاء زاو مخو المخلصين ، وزلاقة تحمل صندوقاً يضم الأحشاء ، والنسوة يتخللن الموكب بلا انتظام ، فى الثياب الزرقاء الداكنة ، يصرخن ، ويبكين ، ويشققن الثياب ، ويقذفن التراب على رءوسهن ، ويصفعن وجوههن بلا هوادة . يتبع الخدم ذلك كله ، يحملون التجهيزات الجنازية : الأثاث والأوانى وصناديق الثياب والطعام ، والناس ينثرون السعف على الموكب وهم يقولون : ياللرجل المتواضع فى دنياه ، العظيم فى رحلته إلى الأبدية . إن كل القلوب تبكيه ، وتدعو له ، حتى يأخذ مكانه الذى يستحقه فى مملكة السماء .

جاوز الموكب الأرض الزراعية ، ونثر غبار الطريق فى صعوده أعلى الكثبان الرملية .

حل الرجال البقرتين ، وجروا الزحافات ، حتى لم يعد بوسعهم ذلك . رفعوا التابوت على أكتافهم ، ويد الكاهن ترش الماء المقدس من الابريق ،

واليد الأخرى تلوح بمجمرة البخور ناحية التابوت ، بينما السيدتان ، الحدأتان ، تتقمصان الالهتين ايزيس ونفتيس ، احداهما تنحنى على رأس الميت ، والثانية تنحنى على قدميه .

أعجب أهل القرية بما رأوا ، وقالوا : ما أحسن حظ هذا الرجل . لقد أحبته الآلهة بدرجة عظيمة ، حتى جعلته يصل إلى الغرب ، يتبعه كثيرون من أهله وأصدقائه وأتباعه وخدمه .

لما وصل الموكب إلى المقبرة ، بدأ الموسيقيون والراقصون الواقفون أمامها ، فى أداء الأغنيات والرقصات الجنازية ، وصبت المياه فوق أيدى الكهنة ، وضوعت رائحة البخور أرجاء المقبرة .

المبنى من اللبن ، مستطيل ، جدرانه قوية ، مائلة إلى الداخل ، تتخلَّلها مشكاوات متداخلة ، ونقوش ، وعبارات تعاويذ ، وصور لأنوبيس وآلهة الموتى ، والسقف من جذوع النخيل . الغرفة الكبيرة تتوسط المكان . فتحت ، ليوسد فى داخلها التابوت . الغرف الأربع الأخرى ، صفّت فيها أرائك من العاج ، وأوان مرمرية ، وأدوات منزلية أخرى ، وكميات هائلة من الطعام والشراب ، وقدور النبيذ والجعة ، وكل ما يحتاج إليه الغائب فى العالم السفلى ، وأوسط الجدار نقشت الكلمات : "تخرج كل يوم نهاراً ، وتعود كل مساء ، إلى بيتك . وفى خلال الليل ، يضاء لك مصباح إلى أن تشرق الشمس ثانية ، وتنير جسمك ، ويقال لك مرحبا فى بيتك هذا ، بيت الأحياء ، وأنت ترى رع فى أفق السماء ، وتشاهد آمون عندما يطلع .

أوقفت المومياء منتصبة أمام المقبرة ، يرافقها البكاء والصراخ وتراتيل الكهنة ، إلى غرفة الدفن .

أجرى الكهنة شعيرة فتح الفم على تماثيل الأوشابتى . إذا ظلت قادرة على تناول الطعام ، فان الأمل لا يغيب فى استمرار الحياة ، عندما يسترد زاو مخو أنفاسه داخل القبر .

اطمأن إيمسخ ـ خادم زاو مخو ـ على التعويذة التى نقشت فى جدار المقبرة : "آه ياقلب أمى . آه ياقلب أمى . آه ياصدرى الذى يضم أشكالى المختلفة . لا تشهد ضدى ، ولا تعادنى فى مجلس القضاء ، ولا تعادنى أمام الواقف على الميزان . فأنت روحى التى فى جسدى ، و"خنوم" الذى

صنع أعضائى مزدهرة . فلتتقدم فى طريق السعادة ، ولتسرع خطانا إلى هناك ، ولا تجعل اسمى مرذولاً عند النبلاء الذين يجعلون البشر كومات . انه لمن الافضل لى ولسامعى الدعاوى - يامعطى الأحكام - ألا تلقى *الأكاذيب ضدى فى حضرة الإله الأعظم ، ولتحذر مما قد تلقى به .*

نزل إيمسخ إلى القبر . شارك فى حمل الجثمان ، ووسده بنفسه فى موضعه ، وفك عنه لفائفه ، ورمى بالأغلال بعيداً .

انطرحت حررة - ابنة زاو مخو الوحيدة - على بطنها . لمست التراب . حثته على رأسها . رددت أمامَ التابوت الراقد تحت رحمة رع ، ما ذكر الحاضرون - فشاركوها النواح والبكاء - بالنشيد الذى ولولت به إيزيس أمام جثة أخيها وزوجها :

"إرجع الى منزلك . إرجع الى منزلك . أنت الذى لا أعداء لك . أيها الرجل الجميل . ارجع الى منزلك ، لترانى . فأنا ابنتك التى تحبها ، ويجب ألا أفقدك . أيها الرجل الجميل ، عد الى منزلك . انى لا أراك الآن ، ومع ذلك فإن قلبى يفيض حبا لك ، وعيناى تتلهفان عليك . عد إلى تلك التى تحبك . عد إلى ابنتك . أنت الذى جمد قلبك . عد إلى ابنتك . يجب ألا تبتعد عنى . أناديك وأبكيك حتى يسمع صوتى فى السماء ، ولكنك أنت لا تسمع صوتى" .

وقالت حررة من خلال نشيجها :

"انى ابنتك يازاو مخو . لا تتركنى أيها الغالى . هل يقوى قلبك على فراقى ؟. هل تذهب بحنانك بعيداً ، وتذهب إلى الشاطىء الآخر بلا رفيق ؟.

كنت أطمئن إلى حياتى فى ظل أبوتك الحانية . والآن ، سأصبح بلا سند ولا راع .

نعم . أنا ابنتك - ياأبى العزيز - فلا تتركنى . لماذا أنت بعيد عنى ؟ أنت يامن كنت تحرص على رعايتى ، وكنت تحب المزاح معى . أنت الآن صامت ، لا تتكلم" .

ودعا أهل زاو مخو بأن يتمتع بالنور فى قبره ، وبرحمة أوزوريس ، وقالوا : "واحزناه ! واحزناه ! يالفداحة الخسارة ! لقد ذهب الراعى إلى أرض البقاء . وذلك الذى كان له أصحاب كثيرون ، أصبح الآن فى بلد يحب الوحدة" .

وعلت صيحات النساء : "ياللمصيبة ! ياللداهية ! لقد ذهب الراعى الصالح إلى أرض الأبدية . ان من كان يحب أن يفرج مابين قدميه ، هو الآن مغلق عليه ، ملفف بالأكفان ، مضيق عليه . ان من كان له الكتان الرقيق الوافر ، وكان يحب ارتداءه ، هو الذى ينام الآن فى ثياب الأمس المنبوذة" .

سأل الكاهن الجنازى ، القادم من العاصمة :
- من أكبر أبنائه ؟

قال الكاهن الكبير بمعبد القرية :
- نختى قائد جنود الملك السابق .

- أين هو ؟
- يعالجه الأطباء من اصابة فى ساقيه .

- فمن سيؤدى الطقوس الجنازية ؟
- أبناؤه الثلاثة الآخرون غابوا عن القرية قبل وفاته .

وقف الكاهن الجنازى قبالة القبر ، وقال بصوت قهره التأثر : "لا تحزن ! فالآلهة ستنهضك من جديد . إنها ستعيد لك رأسك ثانية ، وتجمع لك عظامك ، وتضم لك أعضاءك ، وتأتى بقلبك لجسمك" .

اضاف الكاهن بلهجة آمرة : "قم لخبزك هذا الذى لا يمكن أن يجف ، وجعتك التى لا يمكن أن تصير فاسدة ، إذ بها تصبح روحاً" .

صدر عن أيدى الكاهنات أصوات متناغمة ، هامسة ، من الشخاليل والصنوج والعقود الكبيرة .

قال الكاهن : أعد اليه - أيها الإله - شبابه ، وامنحه حواسه الأرضية ، حتى يزين للظهور بصورة طيبة فى جنات العالم الآخر .

مال كاهن المعبد على أذن الكاهن الجنازى ، وقال بهمس :
- لكن الميت أنهى حياته قبل أن يأتى أوان ذلك .

واصل الكاهن الجنازى أداء صلواته : "ان الآلهة لتقف من حوله وتناديه : قم . قف . فيصحو ، وان جب ليفتح فمه ليستطيع الكلام من جديد" .

تداخلت الدهشة فى همس كاهن المعبد :

ـ لكن القضاء أدان الميت ـ فى حياته ـ باغتصاب زوجة آخر .

توقف الكاهن الجنازى عن أداء الصلوات . رمق كاهن المعبد بنظرة غاضبة :

ـ قل ما ينفع الميت ، ويهدى ظله الحقيقة ، وهو يهيم فى مسالك الآخرة .

وأشار الكاهن الجنازى إلى القبر ، وقال : "انه الآن يتخذ شكل العنقاء ، أو عصفور الجنة ، أو الصقر ، أو مالك الحزين . إنه يصعد ويهبط دون أن يمنعه أحد ، ويجوب الأبدية فى سعادة .

ان مصراعى باب الأفق يفتحان له ، والمزالج تفتح من تلقاء نفسها ، ويدخل بهو الحقيقتين ، فتستقبله الآلهة بما يستحقه من حفاوة وتكريم .

انه الآن وسط أهل الثناء بين الموقرين .

ويا أيتها الآلهة إن رجلنا يغدو إليك . انه يغدو إليك . انك تسكنينه عندك ، تضمينه بين ذراعيك .

افتحى له باب السماء ، المفضى الى الأفق . وابتهجى عندما يقترب كنجم يعبر البحر ، من تحت جسم توت ، فى جلال قضى به رع .

وأشار الكاهن إلى مدخل القبر : "اذهب يازاو مخو ، فقد تفتحت لك السماء ، وانفسحت طرق العالم السفلى ، كى تخرج وتدخل مع الإله رع ، فتسير مستمتعاً بحريتك كأى سيد من سادة الأبدية .

ان عظامك لن تفنى ، ولحمك لن يمرض ، وأعضاءك ليست بعيدة عنك .

لا تخش بأس السباع ، وان كان لك أن تخشى الافاعى فى بيتك السفلى ، ربما لا تفلح عزائم السحر فى مقاومتها .

لقد غدوت الى السماء صقراً ذا ريش كريش الأوز . اندفعت ككركى ، وقفزت كجرادة . لم تعد بيننا فى الأرض . انك فى السماء ، إلى جانب إخوتك الآلهة .

إنك تعيش سعيدا أبداً ، وبجانبك "الكا" التى لك . انها لن تهجرك أبداً .

قم للحياة . إنك لن تموت .

المحاكمة

كان أول ما طالع زاو مخو فى العالم السلفى ، شجرة جميز هائلة الحجم والظلال . أطلت منها آلهة تقدم له ، ولسواه ـ بعشرات الأيدى ـ ما لا يخطر على البال من الطعام والشراب .

قاعة الصدق . ازدان سقفها بلهب النيران وعلامات الحق . المقصورة تتصدر المكان ، يجلس فيها أوزوريس على عرشه ، يرتدى تاج "الآنف" . بيمينه عصا الراعى ، وبيساره عصا "النخخ" . من أمامه رمز أنوبيس وأبناء حورس وآكل الموتى . فى أقصى البهو من الخلف ، قضاة أوزوريس الاثنان والأربعون ، يقضون فى أفعال الراحلين من البر الشرقى إلى البر الغربى ، ما حسن منها ، وما جانبه الصواب ، وما أسرف فى الخطأ .

لم يكد يقطع فى القاعة خطوات ، حتى استقبلته آلهة الحق .

قاد الإله حورس زاو مخو من يده ، فمثل قبالة القضاة . أمام أوزوريس ميزان يقابله الإله انوبيس ، والحكيم تحوت يسجل نتائج وزن الميت فى لوحة لا يراها زاو مخو ويسر بها ـ فى همس ـ إلى رئيس القضاة .

وقف الميت بجوار الميزان يراقب الوزن ، والإله "عممت" يتأهب لالتهام قلب زاو مخو إذا وجده ناقصاً فى الميزان ، والآلهة الباعثة على الرعب ، العظيمة فى القتل ، تحيا على الخاطىء ، وتستحم فى دمه . تنكل بالمخلوقات التى أعلنت ـ بما ارتكبت ـ عداءها ، وتمحق كل العاصين . الإله يعرف كل اسم ، والقربان بلا قيمة إن لم يقترن بفعل التقوى والفضيلة .

عانى زاو مخو وهو يرنو إلى الإله أوزوريس فى صورته القوية على المنصة . انتزع الكلمات التى طالما حفظها منذ طفولته حتى انتقل إلى العالم السفلى . قال بلهجة مترددة فى البداية ، ما لبثت أن استوت واستقامت ، فأهمل ما حوله إلا أن يعلن براءته :

"لك الحمد أيها المعبود الكبير ، ياسيد الحقيقتين .

لقد أتيت اليك لأشاهد جمالك . انى أعرفك وأعرف أسماء الآلهة الاثنين والأربعين الذين معك فى بهو الحقيقتين ، والذين يعيشون على المسيئين ، ويشربون دمهم يوم الحساب أمام وونفرى .

هأنذا أجىء إليك . أجلب الحقيقة ، وأطرد الاثم .

لقد فعلت ما كان يحبه الناس ، ويرضى الآلهة ، حتى يجعلوا بيت أبديتى يبقى ، واسمى موضع الحمد على كل الألسنة" .

قاطعه أوزوريس :

ـ حظك أيها الرجل متوقف على ما فعلت فى حياتك القديمة من صواب وخطأ

قال زاو مخو :

ـ أنا لم أرتكب إثماً قط !.

قال أوزوريس :

ـ إن الذى تخلو حياته من الذنوب هو بمثابة إله .

أضاف فى تأكيد :

ـ يهمنى أن أبذل المساعدة لك ، ولغيرك . ولكن من الصعب أن أمنح عونى لكل شخص .

وقال وهو يجول بنظرته النورانية فى الآلهة المحيطين :

ـ أما خلو حياتك من الاثم فذلك ما أقرره أنا والقضاة الاثنان والأربعون معى .

واكتسى صوته نبرة عميقة :

ـ مملكة السماء ـ كما تعلم أيها الرجل ـ لا يدخلها إلا المطهرون .

قال زاو مخو :

ـ لقد أعددت أجوبتى على الأسئلة الاثنين والأربعين ، بالترتيب الذى أمرت به المحكمة الموقرة .

قال أوزوريس :

ـ من حقك أن تدافع عن نفسك بما تراه . وعلى المحكمة أن تقتنع ، أو لا تقتنع .

وقال وهو يعد بأصبعيه :

ـ ان لك فرصتين لا فرصة واحدة . فإذا رجحت حسناتك ، ضممناك الى الآلهة . أما إذا تعادلت الحسنات والسيئات ، فلن تفترسك الآلهة الملتهمة ، وانما تعين للخدمة .

تأمل زاو مخو الصورة التى صار عليها . ثم اتجه إلى أوزوريس بنظرة مستعطفة :

ـ ياأيها العظيم أوزوريس . إله العالم السفلى ، وقاضى الموتى ، والجالس على عرشه ، وسيد الغرب ، وأقوى الآلهة .

لقد انتشلتنا من حياة الحرمان والتقشف ، وبدلت فيها بما لم نألفه من قبل ، وعلمتنا كيف نَبْذر الحب ، ونرويه ، ونحصده حين يصبح ثمراً ، وأدخلت زراعة الفاكهة ، وأعطيت الناس القوانين ، وعلمتهم تبجيل الآلهة ، وسرت فى المدن ، تجتذب الجميع بألوان الموسيقا والغناء .

هجرت النوم ، وكرهت التعب فعشت ، وتعاظمت قوتك ، حتى أوقعت الرعب فى قلوب أعدائك ، وصنعت المعارك الدامية ، وعملت على توسيع رقعة بلادك ، وثبت من أقدام الحقيقة .

لقد أتيت إليك ياإلهى ، حتى أرى جمالك .

لم أملك نفسى ـ تأثراً ـ حين سمعت ـ للمرة الأولى ـ عن الدموع التى سكبتها ايزيس ، حزناً على أخيها أوزوريس ، ورحلاتها ـ بحثاً عنه ـ فى البحر والبر . لم تعرف المكان الذى استقرت فيه جثة زوجها وأخيها ، ولكنها لم تركن إلى اليأس . واصلت البحث بلا ملل ، وجابت الأرض كلها ، تكتم ما بصدرها من هموم . لم تهدأ أنفاسها فى صدرها إلا عندما عثرت عليه .

غلبنى التأثر ، فبكيت ، وان غمرتنى الفرحة حين علمت بأن ايزيس الوفية جمعت أجزاء أخيها المقدسة ، وبعثته من بين الأموات ، فعاد كأقوى وأطهر وأنبل ما يكون ، إلهاً بلا أعداء ، وأميراً للسلام ، ومحارباً ، وفاتحاً .

إذا كان حورس قد أعطى أباه عينه ، فأكلها ، ليعود إلى الحياة ، أو أن جسد أوزوريس الطاهر قد عُمّد بيدى حورس وتحوت ، فإن الإله المبجل عاد إلى الحياة ، كأنه لم يمت .

النيل يجرى من عرق أصابع يديه ، والحياة تولد من أنفاسه ، للبشر والحيوان والطير والشجر وجميع الثمار ، يحفظ ما تشيده يد الإنسان من معابد ومنازل وحقول وقنوات ومقابر وغير ذلك مما لا تقوى ذاكرتى الضعيفة على استيعابه .

دعواتى كثيرة ، فلا أذكرها ، إلى تقييد شياطين "سيو" بالأصفاد ، ونصرة أوزوريس على اعدائه ، وهلاك "ست" إن عاد إلى فعل الشر .

المديح لك ياأوزوريس ، يارب الأبدية ، يامن خلقت الظلام ، وعينت له موضعاً على حدود السماوات ، يامن يهابك آلهة العالم السفلى ، ويقاتلون من أجلك فى مساكنهم .

قلبى فى سلام مادمت أتطلع إليك ، أرنو إلى وجهك المقدس .

أنت أنت الخلود ، وخالق اللانهاية .

الجلال لك ياروح الأبدية ، يامن ينطرح حراس مقام الرب أمام كلماتك ، وأحكامك العادلة .

الجلال لك يامن تستقر فوق العدل والحق ، وتمقت الخداع والرياء ، وترفضهما ، يامن لم تدخل قط إلى منزل الهلاك ، ولم تذهب أبداً الى العدم ، ولا عرفت العناء .

الجلال لك يامك الملوك ، وسيد السادة ، وأمير الأمراء .

لقد تجليت ملكاً فى موضع رع . ورثت عرشه ، وحكمت الأرضين ، وسائر البشر . فما أعظم قوتك ، وما أجمل عفوك .

ياأوزوريس الموقر : أعر سمعك إلى من يقف وحيداً فى المحكمة . أنظر إلىّ فى حضرتك ياسيد الغرب .

لم أكن ـ يوماً ـ ذا خطر ، ولا سىء السلوك ، ولا صدر عنى أى كذب أو خداع أو نفاق ، ولا اقترفت الشر علناً أو سراً .

شبعت بطعام أوزوريس والقرابين الجنازية . وعشت طبقاً لتعاليم الآلهة الممجدة ، أتقوى من خبزهم ، وأرتدى ما يهبونه لى من كساء ، وأستظل بشجرة حتحور المقدسة .

كنت أعرف ان الله يسبح فى السماء ، ولكنه يرى كل مافى الأرض ، وأنه مثلما يعقب الليل النهار ، والشتاء الصيف ، والضعف القوة ، فان الموت لابد أن يعقب الميلاد ، والحياة تستمر بعد الموت ، والحساب لا يتحقق فى حياة المرء ، إنما يحاسب على مافعل فى العالم السفلى .

كنت أعرف كذلك أن قلبى ربما تحدث أمام محكمة الآلهة بما ارتكبته ـ عفواً ـ من أخطاء ، فيعرقل بذلك ذهابى إلى دار النعيم .

لقد نمت بريئاً ، وصحوت بريئاً . قعدت بريئاً ، وقمت بريئاً ، أحببت الحق ، وأقمت العدل ، ومحوت الباطل ، وتطلعت ـ أعوام حياتى ـ إلى المجد فى السماء ، والقوة فى الأرض ، والتبرير فى عالم الخلود . أعرف الحلال من الحرام . أميز بينهما كما أميز بين النهار والليل ، بين الأبيض والأسود . وأرفض ما تأباه النفوس الصالحة ، وتتقزز منه . ولن يأذن المبجل أوزوريس للأعداء بتلطيخ اسمى ، والادعاء ـ فى حضرته المقدسة ـ بأكاذيب تقال ضدى .

أغمض زاو مخو عينيه ، كمن يتذكر شيئاً . ثم جال فى الآلهة المحيطين بنظرته المستعطفة :

سلام عليكم ياأيها الآلهة الذين عددهم عدد ما قدم لى من أسئلة ، ينبغى أن أرد ـ بكل الصدق ـ عليها .

سلام عليكم ياأرباب العدل ، الجالسين حول أوزوريس ، القادرين على غفران الخطايا والذنوب .

الجلال لكم ياأرباب الأبدية ، أصحاب النهاية .

الجلال لكم ياأرباب العدل والحق . تطهرت نفوسكم ، وأخلصتم النية ، فلا تشغلكم سوى تبرئة البرىء ، وادانة المذنب .

الحمد لكم أيها الآلهة . انى أعرفكم ، وأعرف أسماءكم . انكم لن تبلغوا عنى سوءاً لأوزوريس الموقر الذى تؤلفون حاشيته ، وستقولون الحق عنى أمام سيد الكون .

هأنذا أجىء إليكم بغير إثم ، وبغير سوء ، وإن استزلت اللعنات على كل الخطايا والذنوب التى ربما ارتكبتها دون إرادة منى .

كنت واثقاً من أن يوم قضاء العدل آت . وهو يوم الحساب ، حيث تفصل الآلهة بين ماهو خير ، وماهو شر . وكل من يعمل الخير ، يجازى بالخير ،

وكل من يعمل الشر ، يجازى بالشر . يكافىء الإله بنفسه كل واحد بالطريقة التى سلكها فى حياته . من يخطىء ، فان الآلهة تبصره الظلام فى النهار ، تحيله جماداً أو حيواناً لا ينطق مثل البشر ، ينظر إليه الناس ـ بتأثيرها ـ كشىء بغيض .

هأنذا أجىء . لم أفعل شيئاً تمقته الآلهة ، ومعظم أعمالى خضراء . وكانت الحقيقة خبزى . وكنت أشرب من نداها .

انى رجل ذو فم طاهر ، ويدين طاهرتين . يقول له من يراه : مرحباً ! مرحباً !

جئت إلى الميزان العظيم ، وليس فى داخلى إلا الصدق .

ليست هناك خطيئة عالقة بجسدى ، ولا شابت أفعالى شائبة شر ، ولانطقت بالسوء ، أو تصرفت بالأذى .

كنت أحلم ـ فى أيامى الأخيرة ـ بأنى أغطس فى النيل ، فعرفت انى تطهرت من خطاياى .

طوبى لى حين تنصت الآلهة المقدسة إلى ما أقول .

مثلت أمام مجلسكم المقدس ، ودعائى أن أخرج ـ كما دخلت ـ نقياً ، طاهراً ، بلا عقاب . دون عائق من بوابات "دوات" التى مررت بها فى طريقى إلى هنا . وتظل أبواب الأفق المزدوجة مفتوحة ، ومزاليجها مزاحة ، فأدخل مملكة السماء الأبدية ، وأحيا بلا ذنوب كما يحيا الآلهة .

أتوسل إلى الآلهة الموقرين أن يثقوا فى براءتى ، حتى أغادر مقبرتى ، فلا أظل فيها . يشقينى الجوع والعطش ، ولا أشاهد الشمس فى ليل أو نهار . وربما واجهت عقوبات الميت الذى لم يحسن تبرير أفعاله . أسماء الآلهة تشى بعقوباتهم القاسية ، وسيوفهم مشرعة للعقاب ، وربما التهموا الواقف أمام المحكمة ، ومزقوه .

أنا لم أرتكب إثما ، لا سرقت ، ولا قتلت ، ولا ارتكبت أذى ، ولا اختلست القرابين ، ولا اقتطعت من التقدمات ، ولا سلبت إلها ، ولا نطقت بالأكاذيب ، ولا أخذت طعام غيرى ، ولا سببت ألماً لأحد ، ولا ارتكبت الزنا ، ولا النميمة ، ولا غضبت إلا لسبب حق ، ولا غررت بزوجة رجل ، ولا

دنست نفسى ، ولا زرعت الرعب فى قلب أحد ، ولا سيطر على الغضب ، ولا صممت أذنى عن كلمات العدل والحق ، ولا مارست الكبرياء ، ولا أشعلت نيران عراك ، ولا حكمت دون روية ، ولا سعيت فى وشاية ، ولا ضخمت الكلمات ، ولا سببت ضراً أو علة ، ولا لعنت الملك أبداً ، ولا لوثت مياه النهر ، ولا نطقت باستهزاء ، ولا لعنت إلهاً ، ولا تلبست كلص ، ولا دنست قرابين الآلهة ، ولا سرقت قرابين الموتى ، ولا حرمت الرضيع طعامه ، ولا ارتكبت خطيئة ضد إله مدينتى ، ولا ذبحت ـ بنية شريرة ـ ماشية الآلهة .

هذا هو ردى المختصر على أسئلتكم التى طلبتم الرد عليها . بالترتيب ، كما أعرفها .

الاسهاب ـ كما تعلمون ـ يحتاج إلى وقت ، حتى أوضح وجهة نظرى ، أثبت دفاعى ، أدحر مكائد الأعداء والمغرضين ، أبدد شائعاتهم .

أطمع فى أن يخفف "تحوت" المزود بالتعاويذ أربطة "ست" التى تكبل فمى ، ويقذفها إله الآلهة "أتوم" فى وجه هؤلاء الذين يريدون أذيتى .

أنا أثق فى سعة صدوركم . قد يحتاج دفاعى المستفيض إلى وقت تحتاجونه لسماع الآلاف من عابرى العالم السفلى بعدى . لكننى أثق أن التثبت من براءة البرىء مما يشغلكم ، تماماً مثل التثبت من إدانة المدان بما فعل .

السؤال الأول

قال أوزوريس :
ـ هذه كلمات طيبة . ولكننا سئمنا سماعها .

قال حورس فى موضعه بمدخل القاعة :
ـ انها كلمات مما يباع فى الأسواق ، ليحفظها المرء قبل أن يمثل أمامكم .

قال أوزوريس :
ـ الأسئلة المحددة تطلب إجابات محددة كذلك .

قال زاو مخو :
ـ لقد أعددت نفسي قبل أن أمثل أمام المحكمة الموقرة ، للاجابة على كل الأسئلة التى رافقت حياتى .

قال أوزوريس :
ـ حياتك مرآة أمامنا .

أضاف فى لهجة تشى بالغضب :
ـ فلتتحدث عن وقائع !

قال زاو مخو بتذلل :
ـ هل أستعين بالكلمات التى حفظتها ؟

قال أوزوريس :
ـ لا بأس ، ولكننا نريد أن تجيب على أسئلة تشغلنا .
وعلا صوته وهو يبعد أذنه عن فم تحوت :
ـ أجب على أول اسئلتنا : هل عشت العمر الذى حدده لك الاله كاملاً ؟
رنا زاو مخو الى نظرات أوزوريس والآلهة من حوله ، واطمأن الى تماسك نفسه :

لقد هبت الأنواء على قلاع سفينتى ، فلم تمزق شراعى ، وظلت السفينة فى سيرها وسط الأمواج المتلاطمة .

عشت وتعذبت ، وحاولت ألا أخطىء ، حتى أثوى هناك ، وأمشى مرحاً بين الأرباب الخالدين .

أديت الطهر الشهرى ، وأخذت النعلين الأبيضين ، وأكثرت من زيارة المعبد ، وأمطت اللثام عن الرموز الدينية ، وتطهرت فى البركة المقدسة ، ودخلت قدس الأقداس ، وأكلت الخبز فى المعبد ، وضاعفت القربان ، وأكثرت من عدد الأرغفة ، وحرصت ـ كل صباح ـ على أن اقدم اللبن لثعابين البيت ، فهى تحميه من اللصوص والحاسدين ..

كنت أتطلع الى السماء ، وقلبى ملىء بقوى الحياة . أعرف أن النجوم التى ازدانت بها صفحتها الواسعة هى أرواح سعيدة ، وجدت طريقها فى النور الدائم إلى جانب الآلهة . مد اليهم الاله العظيم رع ، سيد السماء ،

يده . نظمهم بين ما لا يفنى من نجوم الجسد السماوى .

إن الموت هو بداية حياة أخرى ، جديدة ، خالدة .

انظروا . انى لم افاجأ بالموت ، انما كنت متأهباً للقائه . أعددت نفسى ، فلا أواجه بما يمحو اسمى من ذاكرة الوجود ، أو يتحلل جسمى فى بيت الأبدية ، ويتعفن .

لم أكن فى سن الموت ، والجنازة ، والدفن ، لكننى قررت أن أختصر الزمن ، وأصل الى ذلك كله بنفسى ، بوعى الذى يميز بين الصواب والخطأ ، بين ما يجب فعله ، وما يجب تركه .

إن السنين التى يحياها الانسان على الأرض ، لابد أن تنتهى ، مهما طالت . والموت يختطف الرضيع من ثدى أمه ، مثلما يأخذ الرجل حين يطعن فى السن . لاقيمة لطول الحياة ، لأن الآلهة لايشغلهم طول حياة المرء أو قصرها ، بقدر ما تشغلهم طبيعة الأفعال التى أقدم عليها فى حياته .

لو أنه لم يكن مقدراً لى الموت ، فان الاله الرحيم يقدر أن ينقذنى منه ، ويساعدنى فى أن تنتهى حياتى على نحو مغاير .

قارنت طويلاً بين مباهج الحياة ، وكآبة عالم الغرب الذى لا رجعة منه . فكرت كثيراً فى قسوة الموت . التمدد داخل القبر ، فلا أرى الشمس كل صباح ، ولا القمر عندما يقبل الليل ، وأبتعد عن أهلى وأصدقائى الى حيث لا يأخذ إنسان أمواله معه ، ولا يصحب أصدقاءه ، والأشياء التى يحبها .

كانت ميرية - زوجتى - قد انتقلت بخيانتها ، الى بيتها البعيد . أولادى - فيما عدا نختى الذى ظل على بره - جاهروا بعدائهم ، والملك الجديد أهمل ما كان لى من مكانة ، عند الفرعون القديم ، والمؤامرات توالت ، حتى من هؤلاء الذين كانوا خدماً لى . أصبحت وحيدا . وانصرف الجميع عنى ، أو انهم حاكوا المؤامرات ضدى . ولولا حماية الآلهة ما استطعت أن أفر من تدبيرات الأعداء .

صحوت على حلم بأنى كنت أطل من شرفة ، فتيقنت أن الآلهة ستقبل دعواتى . وأدركت أنه قد جاء اليوم الذى يجب فيه أن أرحل الى أرض السكون ، حيث تتحرر الروح من الجسم ، تصعد الى الكون الطاهر

المقدس ، والى راحة الأبدية ، وان استمرت حياة الانسان بعد وفاته ، وتكدست بجانبه أعماله الحسنة ، والسيئة . تسبح روحه مع الشمس ، تزور الحقول والبحيرات والجبال ، وتزور الأحياء حيث يقيمون ، وتتبع الأدعية والصلوات والرقى ، من يستقبلها فى المملكة اللانهائية .

الصالح ، الصالح ، الذى يصل إلى العالم الآخر ، ينعم بصحبة الآلهة ، ويحظى بمكانة على غرار إله . يصعد إلى السماء عبر السلم العلوى الهائل ، أو يقبض على ذيل البقرة السماوية ، أو يحلق فيها كطائر ، أو يرتفع كعاصفة رملية ، أو كدخان البخور المحترق .

الصالح ، الصالح ، يدخل بيته الأبدى ويخرج منه ، ويشرب كل يوم من مياه البحيرة المقدسة ، وتطير روحه فوق الأشجار التى زرعها ، ويتنسم الهواء تحت شجرة الجميز التى أحبها ، ويأكل من ثمر تلك الشجرة ، وتمشى قدماه ، وتتحرك فلا يسكت ، ولا ينسى الكلام ، ويصعد إلى السماء وينزل ، فلا يعوقه شىء ، وتظل روحه طليقة ، ويحرث فى حقل «يارو» ، ويحصل على كل ألوان الطعام والشراب التى يأكل منها الآلهة أنفسهم على مائدة الإله العظيم .

قلت لخادمى ايمسخ :

- الفئران ملأت البيت .

قال الخادم :

- وبماذا تأمر يا سيدى المبجل .

قلت :

- دسوا لها فى الطعام نباتا مسموما من الذى زرعته فى حديقة البيت !

تابعته وهو ينصرف :

- احضر لى حزمة منه ، لأدسّها فى طعام داخل حجرتى .

بدا لى الموت كالاقبال على مائدة شهية بعد طول جوع ، كالدواء الذى يشفى من مرض طال ، كالانفلات من السجن ، كالحركة بعد استمرار قعود ، كالارتواء بعد خداع السراب ، كالجلوس تحت ظل شجرة فى يوم قائظ ، كالنظر الى القمر فى سماء صافية ، كاللواذ ببيت آمن مسقوف من الهجير ، ومن العاصفة .

كنت أعرف أنى لن أسافر ميتا ، وانما أسافر حياً . أسافر حتى أعيش ، ولن أسافر حتى أموت . كنت أتعجل الرحيل عن الحياة الدنيا ، كى أتمتع

بصحبة الآلهة ، ومباهج العالم السفلى . الحياة الأخرى أبدية ، لا يهمل أمرها إلا الغبى .

أقبلت على دنيا الغرب وأنا أنام حتى مطلع الفجر . لم تكن عيناى قد ثقلتا ، ولا ضعف ذراعاى ، ولا انتابنى عارض من المرض ، ولاعانيت تأثيرات الشيخوخة .

وعبرت الطريق المؤدى الى السماء ، بخطوات ثابتة ، وسريعة . وضعت النبات المسموم ـ بنفسى ـ داخل الطعام . اجدت خلطه ، ابتلع ، ولا أمضغ ، فلا أحس بمرارة النبات .

أسلمت نفسى ـ فى فرحة ـ إلى رقدة الموت ، حتى أدخل فى حضرة المبجل أوزوريس . جلست فى زورقى ، وتناولت مجدافى بيدى ، واتجهت إلى حيث الضياء الإلهى .

أنا لم أمت بأيدى أعدائى . عشت ، وسقطوا هم . ذهبوا ، فلم يبق منهم أثر . وحين أزمعت الرحيل ، كان ذلك باختيارى ، لا من صنع اعدائى ، ولا من تدبيرهم .

لقد أصبحت مثل الرجل القديم ، فحلاً وسط قطيع غريب ، فلذت بأرض الغرب التى لا يوجد فيها عدو .

أما كيف كان ذلك ، فهذا ماسأرويه للمحكمة المبجلة ، فيما أعددته من ردود على أسئلتها .

السؤال الثانى

قال أوزوريس :

ـ لن اناقش بواعث اختصار عمرك بيدك . انما سأترك ذلك الى القضاة معى .

قال زاو مخو :

ـ انى على ثقة من تفهمكم وتفهم القضاة الموقرين ، وعدالتكم .

قال الاله عممت ، آكل الموتى :

ـ هذا الرجل صادق الصوت .

قال أوزوريس :

ـ نحن لاندين أحداً ولا نبرئه ، بتحرى صدق صوته ، وانما بتحرى صدق أفعاله .

نظر زاو مخو إلى الاله آكل الموتى ، برأسه الذى كأنه رأس تمساح ، ومقدمته التى كأنها لأسد ، ومؤخرته التى تشابه مؤخرة فرس . قال :

ـ إنى صادق بالفعل ـ أيها الاله الموقر ـ فى كل ما أقول .

قال أوزوريس :

ـ فلتجب إذن على السؤال الثانى : هل راعيت حق جسدك عليك ، مثلما رعاك الاله فى صباك وشبابك ؟

قال زاو مخو :

لقد ولدتنى أمى بعد أن اكملت أشهر الحمل ، وحملتنى على عنقها ، وظل ثديها فى فمى ما يقرب من ثلاث سنوات ، ولم يكن يعروها اشمئزاز بسبب أوساخى .

ولدت فى اليوم التاسع والعشرين من الشهر . فأخبر العرافون أبى أنى سأكون من الرجال المحترمين إلى نهاية العمر .

أنفق أبى النهار يعلمنى ، وأنفق الليل يهذبنى . علمنى ما لم أكن أعلمه، وعودتنى حب الناس والحيوان والطير والأشياء، ودعانى إلى مصادقة من يقاربوننى فى السن ، وإن اغلظ لى فى القول حين رآنى مع شبان من سكان الأكواخ .

علمنى أبى نصائح الحكيم القديم ، فأنا أجالس الآخرين ، فأتعفف عن الطعام ولو اشتهيته . قدح الماء الصغير يكفى لرى الظمأ ، وقليل من حشائش الأرض تحفظ على القلب حياته .

جعلنى أبى أعشق الكتب ، وأن الدراسة يجب أن تكون لى أجمل من اللعب والمغريات . قرأت أقوال الأسلاف ، وحكمهم الخالدة فى كتبهم. انها البداية لكل فعل جميل، والمصدر لكل خير. هى أفيد للمرء من قصر متعدد الحجرات، ومن نصب كبير باسم صاحبه ـ بلا قيمة ـ فى ساحة المعبد، ومن مقصورة شيدت للاقامة الأبدية فى عالم الغرب .

نصحنى أبى ـ حين أصبحت غلاماً ـ بأنى اذا تزوجت ، فإنَّ علىّ أن أحب زوجتى فى حدود العرف ، وأعاملها بما تستحق من عناية وتكريم. ومع

أن أبى لم يكن كثير الأبناء، فإنه نصحنى ـ كثيراً ـ بأن أنجب ما استطعت من أطفال، ليصبحوا لى عوناً فى شبابى وشيخوختى .

قال لى أبى : اختر وظيفة مناسبة ، وتزوج ، وليكن لك الوفرة من النسل ، حتى يدعو لك الناس ، ويقولوا : هذا هو فلان الذى كون أسرة ، وأنجب بنين وبنات ، وفعل الخير فى حياته .

ولقد كونت بيتاً ، وفعلت خيراً على الأرض . وكنت أصلى إلى الآلهة ، حتى أرزق بابن يرثنى ، ويدعو لى بعد رحيلى إلى العالم السفلى .

استجابت الربة المقدسة إيزيس لدعواتى ، فرزقت بطفل جميل ، سميته نختى ، وكنت قد فقدت الأمل فى الانجاب تماما . ثم توالى مجىء الأبناء ، ثلاثة ذكور ، وفتاة واحدة هى حررة .

لم أختتن ، ولا حرصت على ختان أبنائى لمجرد أداء شعائر الدين ، وانما لأن النظافة خير للجسم . وكنت أحرص ـ دائما ـ على العناية بتنظيف أظافر يدى وقدمى ، وتسويتها ، وأشدد على الخدم فى وضع الطسوت والأباريق ، إلى جانب مائدة الطعام . نغسل أيدينا قبل أن نجلس إلى ما وهبته لنا الآلهة ، ونفعل الشىء نفسه بعد فراغنا من الأكل ، وأشرب ، وتشرب أسرتى ، فى أوان من الفضة أو البرونز . أدقق فى تنظيف الخدم لها تنظيفاً جيداً ، قبل أن توضع على المائدة ، وأغتسل بالماء البارد ، مرة بالنهار ، ومرة بالليل ، وأحلق جسمى ، فلا تبقى فيه شعرة ، حتى لا تعلق به حشرة من أى نوع ، وأحرص على أن أجرى تطهراً يوميا قبل أن أرتدى ثيابى ، وقبل أن أخرج إلى مألوف حياتى اليومية .

إن أطراف اوزوريس قد تم احياؤها بالاغتسال التطهرى فى المياه الجارية .

ألفت تعاطى المقيئات بين كل فترة قصيرة وأخرى ، حتى يزول ما بالجسم من عفونة وفضلات تؤذيه . وأتقنت المصارعة والمبارزة بالعصى وألعاب الكرة ، وأنواع الصيد والقنص . وكنت أخرج فى قارب ، أصعق الطير بعصاى الملتوية ، وأقتل برمحى حصان البحر ، أو سمك النهر .

أما آخر ما كنت أفعله قبل أن أترك البيت ، فهو انى أزين معصمى بزوج او أكثر من الاساور ، وادسّ الخاتم فى اصبعى ، وأحيط رقبتى بعقد من ستة صفوف من حبات الخرز . أطمئن الى اكتمال هيئتى ، فأغادر البيت

لم أتردد على الأماكن المشبوهة ، ولا استهلكت قوتى فيما لا جدوى من فعله . وحين كان المرض يهزمنى ، فانى كنت أنفذ وصايا كهنة المعبد ، وتعاليم الأطباء ، فلا أغادر البيت ، وأشرف من داخله على العمل فى الضيعة ، وعلاقات الأهالى ، وما ينبغى أن يؤدوه إلى حكومة جلالته .

ولما تسلل المرض إلى عينى ـ بانعكاسات الضوء والرياح والغبار والحشرات ـ فإنى لم أبخل بشىء حتى تعود الصحة إلى عينى ، وأبصر ـ بقوة ـ خيرات الآلهة فيما حولى .

كان الخدم يضعون على مائدتى لحوماً وطيوراً مشوية وفاكهة وجعة ، بالاضافة إلى الحيوانات البرية التى كان الخدم والكلاب يصطادونها من أجلى .

وكنت أحرص على أكل الخس ، وأحرض زوجتى على أكله . انه يشعل الشبق فى جسد الرجل ، ويسرى بالخصوبة فى جسد المرأة .

وعندما اخترت اللواذ برحاب الأبدية ، فإنى حرصت أن يكون جسمى على حاله . رحلت إلى الشاطىء الغربى دون أن أحرق جسمى ، أو أصيب اعضاءه بالتكسر .

همنى أن يكون جسمى سليماً ، وقلبى سليماً ، فى حضرة الاله الأعظم .

السؤال الثالث

قال أوزوريس :

ـ كنت سيد قومك . سنناقش ـ فيما يلى من دفاعك ـ كيف كان ذلك ؟

قال زاو مخو بلهفة :

ـ لقد أعددت أجوبتى على كل ما يمكن أن تعده لى المحكمة الموقرة من أسئلة .

قال أوزوريس :

ـ ان رجلاً وصل إلى ما وصلت إليه من مكانة ، يستطيع أن يفرق بين كلمات السؤال السابق ، وهذا السؤال : هل ظل جسمك طاهراً ، كثوب نظيف لم تلوثه الأوساخ ؟

قال زاو مخو :
انى لم أطع جسدى ، حتى لا أصبح عدواً لنفسى .

لقننى أبى الكتاب المقدس ، وروى لى مآثر الإلهة حاتحور ، وعلمنى أسرارها . قدست كل ما يعد آلهة : البقر والتيوس والكلاب والقطط والتماسيح وأفراس النهر والجرذان والفئران والصقور وآباء منجل وثعابين الماء .

قال لى أبى وأنا صغير : إن لم يكن الصاعد إلى الشمس طاهر الجسد ، فإن الآلهة لا تقبله ! .
وقال لى : إن لم تكن طاهر الجسد . فكيف يستقبلك أوزوريس ، أو يمنحك عفوه .. وهو الذى يدين بمكانته لبراءته من الخطايا ؟

كنت أقلد الكهنة . أزيل الشعر من جسمي مرة كل يومين ، فلا تعلق بى قملة أو أية حشرة قذرة ، تمنعنى من ممارسة صلواتى . لم أتخلص من شعر رأسى ولا رموشى او حواجبى ، لأن ذلك ما يتفرد به الكهنة الموقرون .
وكنت إذا شربت ـ ولو قليلاً من الخمر ـ مضغت ورقة نعناع ، لأقطع الرائحة .

وعندما كبرت ، حرمت على نفسى الكثير من الأطعمة والأشربة . لحم الخنزير ولحم الماعز ولحم البجع والفول والثوم . وكنت أفعل مثلما يفعل الكهنة الموقرون . يوضع على مائدتى الكثير من الأطعمة ، فلا أتناول سوى اليسير وان شملتنى سعادة لأن زوجتى وأبنائى يأكلون ما يشتهون .

دفعت بعيداً بالشر الذى يريد أن يجتذبنى ، يخضعنى لسطوته . فلم يلوث ردائى . أشغل فراغ وقتى بالصيد فى الصحراء ، والنزهة ، وصيد السمك على ضفة النهر ، وفى الجزر داخله ، وصيد الطيور فى المستنقعات ، والزيارات المقدسة للمعابد ، ومجالسة الأصدقاء فى حديقة البيت .

لم أرتد ـ ولاحاولت ـ الأماكن السيئة والمشبوهة . كنت أحذر النسوة اللائى يثرن الشهوة فى النفس المؤمنة . أخشى المكان الذى حللن فيه . غضضت من بصرى ، فلم يستهونى جسم براق ، وصممت أذنى عن سماع عباراتهن وضحكاتهن الخليعة ، وابتعدت عن السير فى الطريق التى حاولن السير فيها .

لم أرسل طعاما أو ملابس أو عطورا إلى سيدة فى بيت آخر . وظل جسدى نظيفا ، فلم أقرب امرأة غير زوجتى ، وظلت شفتاى طاهرتين ، فلم تنطقا بالنميمة ولابالوقيعة ولا بالكلمات المعيبة . وعندما عاقبتنى الآلهة لخطأ لم أتعمده ، فإن القرابين التى قدمتها - بكل الخضوع والتأدب - مسحت ما حدث ، كأنه لم يكن .

أذكر الحادثة القديمة :

كانت القرية تحتفل بعيد ميلاد الاله . ارتدى الناس أفضل ثيابهم ، وأقاموا الاحتفالات .

نسيت - فى صخب الفرحة - أن أغتسل . باشرت زوجتى ، وكان ينبغى أن أتطهر حين أعبر السور المقدس . لكن الفرح كان قد لفنى تماما . نسيت أن التطهر من مباشرة النساء واجب على أن اؤديه قبل أن أدخل المعبد .

سأل الكاهن :

- هل أنت طاهر ؟

قلت :

- نعم .

وقادنى - كما كنت ألفت - إلى قدس الأقداس . وعاقبنى بتاح ، سيد الحقيقة ، بمرض فى عينى لم يبرئنى منه علاج الطبيب . إنما أفادنى ما قدمته من قرابين إلى الآلهة فى المعبد .

انى أثق فى حكمتكم بتبين شرور هؤلاء الذين يريدون تلويثى ، ورؤيتى مطروحاً ، عاجزاً ، أو أعانى العذاب الأبدى لذنوب لم أرتكبها ، أو أنها كانت مجرد أخطاء لم أتدبرها ،ولا سعيت اليها .

إن الشر موطنه القلب ، فلا يعبر عنه الفعل وحده .

السؤال الرابع

قال أوزوريس :

- أنت تلجأ إلى الكثير من الكلمات المحفوظة .

قال زاو مخو :

- هذه يا إلهى الموقر - كلماتى .

قال أوزوريس :
ـ أعرف . ولكنها لا تخرج عما ألفناه فى تعاويذ الخروج نهاراً .
ـ إن قلبى هو الذى يتحدث .
ـ ادخل فى الوقائع .. ولا تبتعد .
أضاف بصوته العميق ، المؤثر :
ـ هل تغلبت على شهوات جسدك ؟
قال زاو مخو :

كانت نظافة جسمى ـ منذ صغرى ـ هى أهم ما حرصت عليه . يفرغ الحلاق من قص شعر رأسى ، فيبدأ فى تقليم أظافر يدى وقدمى . وفى كل مساء ، يمسح أحد الخدم جسمى بالزيت ، ويدلك آخر قدمى .

لم أتبع ـ ذات يوم ـ رغبات قلبى . وتركت وراء ظهرى رغبات الجسد ، وأحببت الشجاعة ، فحرصت على نظافة أعضائى السفلية .

لم أزن ، ولا ارتكبت الفاحشة ، ولا اغتصبت النساء من أزواجهن .

كنت أحذر المرأة الغريبة . لا أوجه اليها نظراتى ، وأحرص ، فلا أقارف معها إثماً ، حتى لو كان الكلام البعيد عن البراءة .

تبدو تلك الحادثة القديمة ـ وحدها ـ كالبقعة السوداء فى الثوب الأبيض ، وإن أحسنت التخلص منها بالصلاة ، وتقديم القرابين ، فسقطت من حياتى ، كأنها لم تكن .

كان رع قد مضى إلى مخدعه فى الأفق الغربى ، وغاب القمر ، ونشر الظلام جناحيه على المدن والقرى والنيل والصحراء ، وتعالى عواء الذئاب ، وتسللت الزواحف والحشرات من جحورها ، واسترخت التماسيح على ضفتى النهر ، ومن بعيد تتناهى أغنية على صوت «الجنك» :

انه ليوم جميل ..
الجسم رطب ..
والثيران تجر ..
والسماء تعمل وفق رغباتنا ..

أنهيت نهاراً مزدحما بمشكلات الناس فى قريتى ، وفى القرى التابعة للاقليم . أفسح لى الأتباع طريقى ، وراقبوا الأعداء من خلفى . وحين لمحت المرأة فى جلستها على باب المطبخ ، سألت خادمى إيمسخ :

ـ من هذه ؟
قال إيمسخ ٠
ـ هذه يا سيدى المحترم خادمة جديدة فى القرية ..
علا صوتى بالدهشة :
ـ ولماذا تجلس هكذا ؟
ـ تنتظر ـ بكل الخضوع ـ قراركم ، إن كانت تعمل فى البيت ، أم تعود إلى القرية .
قلت وأنا أخلفه ورائى :
ـ فلتصعد إلى غرفتى .

مع فقرها البادى ، فانها كانت ـ فى انعكاس ضوء مصباح الزيت على الجدران المكسوة بالمرمر الأبيض الشفاف ـ جميلة كالآلهة ، وجهها مثل اشراقة صباح رائق ، وجدائلها فى سواد الليل ، وقوامها مثل نخلة منتصبة ، وغلالة شباك الصيد التى التف بها جسمها ، زادت جمالها بما لا يمكن وصفه .

لم تكن راحة انسان قد لامست ثديى المرأة ، قبل أن تأتى الى بيتى . فلما عادت إلى بيتها ، قدمت لأهلها من الهدايا والمنح ما ألهج ألسنتهم بالثناء والشكر ، ونبذت أخطائى ، وتجردت من كبائرى ، وصليت للآلهة ، وقدمت القرابين ، فصارت الحادثة القديمة كأنها رماد حريق ، ذرته الرياح ، فلم يبق منها ـ حتى فى داخلى ـ شىء .

قيل انى ضاجعت المرأة فى المعبد .
ولم يكن ذلك صحيحا .
أعرف أن الاتصال الجنسى محرم فى المعابد . وكان فى بيتى من الغرف ، أو فى بيوت أتباعى ـ إن أردت إخفاء الأمر عن زوجتى ـ مالا يجعلنى فى حاجة إلى المعبد أو سواه . ربما تصور كبير الكهنة ان ذلك ما حدث ، عندما أراد اصطحابى ـ كالعادة ـ إلى قدس الأقداس .

اعتذرت فى تهيب . فلما أصر على رفقتى ، قلت :
ـ إن جسدى الآن غير طاهر .
وهز الكاهن رأسه بما يعنى الفهم . لم أتصور انه جاوز المعنى المحدد ، إلى معان غامضة ، وغريبة .

ان الجنابة تقتضى الغسل قبل دخول المعبد . ذلك ما دفعنى إلى الاعتذار ـ حين طلب الكاهن مرافقتى ـ فلا أواجه غضب الآلهة .
ألا بوجهى ، انى تطهرت قبل أن أودع حياة الأرض ، وأحتل مقعدى فى زورق رع . أجدف عبر السماء ، وأبحر مع النجوم التى بلا حصر ، ولا تعرف التعب .

لقد كان شاغلى أن أصل ـ بالطهر والصدق ـ الى مملكة أوزوريس ..

فعلت كل ماهو صواب ، حتى ترضى عنى الآلهة ، فلا تعاقبنى .

السؤال الخامس

قال أوزوريس :
ـ ربما أجبت ـ أيها الرجل ـ على السؤال التالى ، فيما سبق من اسئلة . ولكن هذا هو الترتيب الذى وضعته الآلهة للأسئلة الاثنين والأربعين : هل حافظت على حسن سمعتك ؟

قال زاو مخو :
لقد عملت صالحاً فى الدنيا ، وهوى قلبى إلى طريق الإله منذ حداثتى . وكانت محبة الله تلازمنى من شروق الشمس ، الى غروبها فى صباح اليوم التالى .

وحين حلمت ـ وأنا صغير ـ بأنى أرتدى وجه فهد ، رويت لأمى ما حدث ، فصحبتنى إلى مفسر الآحلام . شيخ لا اذكر ملامحه ، ولا أذكر حتى الشجرة التى كان يجلس تحتها فى أطراف القرية .
سأل أمى :
ـ هل كانت هذه أول مرة يحلم فيها بوجه الفهد ؟
نظرت أمى الىّ ، فهززت رأسى .
قال :
ـ هذا فأل حسن .
أضاف لنظرة أمى المتسائلة :
ـ ولدك سيكون رئيسا ، أو سيداً .
وعرفت ـ من يومها ـ ان ذلك هو ما اختارته لى الآلهة ، فأعددت نفسى ، وسعيت فى اتجاهه .

شيدت بيَتاً ، زينته بأبواب ونوافذ ، وحفرت بحيرة ، وزرعت أشجاراً مورقة ، تنمو وتنشر ظلالها فى كل مكان ، والناس يجلسون ـ فى طمأنينة ـ تحتها .

وكانت حظائر المزرعة تضم وراء أسوارها ما اصطدته من الثيران والغزلان والأيائل والماعز البرى والتيوس والضباع والوعول .

وحرصت على غرس الأشجار المقدسة فى حديقة المعبد ، تظلل ، وتهب الخمر الطيبة للرهبان ، ولراغبى الشراب من أهل القرية .

الناس تحترم بالغ القوة انها تخشاه ، وتعمل له حساباً

وحتى تتعاظم قوتى بين سادة القرى ، ويخشى سطوتى هيرا ، حاكم الاقليم ، وأكبر فى عين زوجتى وأبنائى وجيرانى ، فقد أكثرت من عدد أتباعى وخدمى ، بما لا تحتاج اليه حاجة العمل ، وان أوكلت لكل واحد عملاً يلتزم به ، ويعاقب اذا لم ينجزه بصورة طيبة .

كنت مشهوراً بين أهل القرية بأنى أتجنب الغضب فى الحديث ، ولا أندفع فى العاطفة ، وان لى قلباً هادئا ، خاليا من كل طيش ، لا أفعل الشر ، ولا أنتويه ، ولا أخالط رفاق السوء . وكانت بيوت القرية كلها مفتوحة لى . لم يغلق أحد بابه فى وجهى ، فأنا أب وأخ أكبر لجيرانى من أهل القرية . أمد يدى للبؤساء ، وأعطى لكل ما يستحقه ، وأعنى بجنازة من لا أولاد له ، وأحمى الأرامل والأيتام ، وأثبت للابن وراثه أبيه ، وأصغى الى من يقول الصدق ، وأبعد ذوى السيرة السيئة ، فاكتسبت طيب السمعة إلى الأبد .

وكان يزورنى فى البيت أصدقاء من الأرضين . وزراء وحكام مقاطعات وموظفون رسميون وتجار وسادة قرى وضباط ورجال شرطة وقادة عسس . وأحيانا ، كنت أستقبل كهنة المعبد القريب ، وأعرض ما أعجز عن حله من مشكلات القرية ، وأنصت إلى نصائحهم .

علمنا الكهنة الموقرون أن الملك ولد قبل أن توجد السموات والأرض ، وقبل أن يوجد الانسان ، وقبل أن توجد الآلهة ، وقبل أن يكون هناك موت ، انه لا يموت بسبب أى مرض ، فالملك نجم لا يهلك . واذا مات ، فان ذلك لا يحدث الا اذا بلغ أقصى حد لحياته .

كان من حظى انى عشت فى عهد الفرعون مرسو رع . ذهبت الفوضى ، وتوطدت أركان العدل ، وانتشر السلام والرخاء ، وتوالى الفيضان فى

موعده ، ونمت المحاصيل ، وتكاثرت قطعان الماشية ، وتدفق على البلاد ، ما لا حصر له من الذهب والفضة والنحاس والأخشاب الثمينة والعاج والبخور والعطور .

يجلس الفرعون فى الصدارة . يملى الرسائل ، يوفد الرسل ، ويستقبل الأمراء والأشراف وحكام المقاطعات وسادة القرى ، يزودهم بأوامره ، ويهبهم نصائحه ، يسرف فى السؤال عن شئون البلاد والرعية ، يتأكد من إقامة العدل ، ورفع الجور ، وتوفير القوت ، وتخفيف الضرائب .

رأيت بنفسى حاكم اقليم الفنتين ، يستأذن ـ لتوالى الأسئلة والأجوبة ، ولقسوتها ، وتقصى الاله المحبوب ، عن كل صغيرة وكبيرة ـ فيتربع على الأرض ، يواصل تلقى الأسئلة ، ويجيب عليها .

كان آباؤه الآلهة يحبونه أكثر من أى ملك آخر تولى عرش البلاد ، منذ خلقها أتوم .

مثلت بين يدى جلالته ، فقلت :

ـ ليتك تهبنى عمراً طويلا ، سعيداً ، كأحد المقربين لك ، فاذا مت ، ورحل جسمى إلى الجبل الغربى ، وهبتنى جنازة حسنة ، وأوصيت بى أرباب محكمة الآخرة الأجلاء .

فلما خصنى الفرعون بثقته ، أصبحت واحداً من هؤلاء الذين يستدعيهم جلالته ، يمثلون بين يديه ، يحظون بشرف التطلع الى وجهه النورانى ، يحدثنا فيما استدعانا من أجله . أمور تهم البلاد . يبدى كل واحد رأيه ، والفرعون ينصت فى تواضع ، قبل أن يفتح فمه بالحكم المقدسة ، ويملى قراراته التى يعمل بها الجميع .

وكنت أعود إلى ونيس ـ قريتى ـ فى كل مرة ، يستقبلنى الفلاحون على مدخل القرية ، بالهتاف والتهليل ، وتضرب النساء الدفوف ، ويغنين ويرقصن ، وترفع ميرية ذراعيها الى السماء ، تشكر الآلهة على ما أولته لنا من نعم .

وتضاعفت فرحة أهل ونيس ، عندما أمر جلالته بأن تعفى القرية إلى الأبد ، من أداء أى عمل للقصر ، ومن السخرة فى أراضى الملك .

نفذت كل ما وجهه لى الفرعون من أوامر . قمت بما عهد به إلى من

أعمال ، وأديتها بما أسعدنى أنه نال رضاه .

الفرعون هو ابن الاله . وكل يفعله يتحقق بإذن الله ، وبعون منه .

ان جلالته هو صاحب الأمر . إليه تأتى الأبدية ، وقد وضعت الآلهة حكمة الملك تحت أقدامه .

جلالته يحظى فى عالم الغرب بما لايناله سواه من الناس العاديين . الجنة السماوية مفتوحة للفرعون ، ويستطيع اذا شاء ، أن يصحب اليها المقربين من خدمه وعبيده .

كنت ـ طيلة أعوام عمرى ـ عبداً لجلالته . أطيعه ، وأنفذ أوامره ، وأحرص على رضائه ، مهما كان لى فى ذلك من تعب ومشقة .

كان مليكى وسيدى ومعبودى وشمسى . وكنت خادمه الذى يشمله الفخر حين يسجد بين يديه . وكلفت المنشدين ، فوضعوا أغنيات باسمه المقدس ، ومدحه بقدر ما ترتفع السماء ، وفعلت كل ما يستوجب الثناء من جلالته .

أصبحت معروفاً فى قصر الملك ، وصرت ـ بفضله ـ سيد قومى ، يحتاجون الى خدماتى ، ويدينون لى بالحب والوفاء .
حقاً ، كانت البلاد سعيدة بملكها المعظم ، مقدرة لأفعاله ورعايته لمواطنيه . فهى ـ فى ظل حكمه ـ آمنة ، هادئة ، يدير مقاطعاتها أمناء مخلصون ، وموظفون يعرفون واجبات وظائفهم .

أما القول بأنى أفدت من عطف جلالته ، فاستوليت على أرض ليست من حقى ، فأنا لم أفعل إلا طرد أعداء من المتسللين ـ لا أدرى من أين وفدوا ـ اقتطعوا ما ليس لهم ، وحصلوا ـ بالباطل ـ على ما بحوزة الآخرين .

أبلغنى أتباعى أن المتسللين بنوا العشش والأكواخ بالطوب اللبن ، فوق المقابر التى يدفن فيها أهل ونيس موتاهم . أمرت ، فهدم أتباعى البيوت ، وطردوا المتسللين إلى حيث جاءوا .

حتى لا يتكرر ما حدث ، شيدت فى الأماكن نفسها بيوتاً لأتباعى ، يقيمون فيها ، ويحرسون القرية ، وينفذون أوامرى فيما يفيد الناس .

ألزمت تحوتى ، رئيس الشرطة ، بأن ينام فى الغرفة المطلة على الطريق . إذا استدعيته . أو استدعاه أهل ونيس ، أثناء الليل ، فانه يحمل سلاحه ، ويعدو خلف الجناة .

شكا لى الكهنة الموقرون من أن المتسللين يدخلون ساحة المعبد المقدسة ، يجلسون فوق الأسوار ، يعطلون أداء الشعائر ، يتطلعون إلى ما لا ينبغى التطلع اليه ، يرسلون التعليقات التى تؤذى الآلهة .

أمرت أتباعى ، فباغتوا المتسللين ، طردوهم ـ حرصا على مشاعر الآلهة ـ إلى نهاية الأفق . ألقوا بمن لم تسعفه قدماه ، فى مياه النهر . عادت الاحتفالات بالأعياد والمواكب ـ بعد التخلص من النجاسة ـ إلى سابق عهدها ، ولم يعد أحد يقترب من أرض لا يملكها .

وحين نقل الوشاة الى جلالته ما حدث ، أضافوا إليه ، وحذفوا ، منه ، وشوه بالألوان والظلال . وضعوه فى دائرة الخطأ الذى يستحق العقاب ، فانه فاجأهم برفضه لوشايتهم . وسأل ان كانوا أتباعا لهيرا ، حاكم الاقليم السابق ، أو جيرانا لمنتومحات ، الذى أعدم بأمر جلالته ، أو أن حقد زوجتى كان وراء الأمر كله .

لقد ميزت الخير من الشر . وعرفت الله الذى هو فى قلوب الناس ، فاحترمت كل إنسان . وحرصت على أن أعين العاجز ، وأغيث الملهوف ، أحسنت إلى المسكين ، وأطعمت اليتيم ، وكسوت العارى ، وتحادثت مع الوضيع محادثتى لعالى المكانة ، وتجنبت الخداع ، ونبذت الكذب ، ولم أغتصب شيئا كانت تضمه قبضة انسان غيرى ، ولا عملت بما يخالف العدل .

السؤال السادس

قطع حورس ـ فى موضعه ـ لحظات الصمت .

قال :

ـ إن أذنت لى المحكمة الموقرة ، فان الرجل زاو مخو يلجأ ـ لايزال ـ إلى كلمات كالتى تباع فى الأسواق .

قال زاو مخو فى خوفه :

ـ هذه كلماتى يا ابن الآلهة .

رنا أوزوريس ـ بعينى المحبة ـ إلى حورس الواقف فى مدخل القاعة . ثم اتجه الى زاو مخو بنظرة مشفقة :

ـ ما يهم المحكمة أن تروى ما حدث ، لا أن تنفى كل شىء بكلمات مطلقة من مثل لم أفعل كذا ولا كذا .

قال زاو مخو :

ـ أنا لم أفعل شيئا ضاراً بالآلهة فعلا .. أيها الاله الموقر .

قال أوزوريس :

ـ هل امتدت يداك إلى سرقة ما بحوزة الآخرين ؟

قال زاو مخو :

وأنا صغير ، سألت أبى : من أين يأتى الفيضان ؟ ولماذا يكثر ؟ ولماذا ينحسر ؟

نهرنى أبى لأسئلتى ، وقال :

ـ الفيضان سر الآلهة . وهو سر فوق قدرة البشر .

كنت أحرص على تقديم القرابين والذبائح ، أقيم الأعياد العظيمة ، أذبح الطيور ، أصطاد الغزلان من الجبال ، أعد النار الطاهرة ، أقدم البخور والنعم السماوية .

النيل أقوى من الآلهة ، لأنه ـ اذا قل فيضه ـ هلكت الآلهة نفسها ، وهلك الناس ، والماشية ، والزرع . ولم تعد فى الأرض حياة .

يأتى الفيضان فى موعده الثابت كل عام . يروى الحقول ، وينبت الزرع ، ويأكل الناس ، ويرتدون الثياب من الكتان ـ وهو نبات كذلك ـ وتجد الماشية طعامها من العشب .

اذا تكاسل أو تأخر عن موعده ، فان الناس يخشون الأيام التالية ، وتتطلع الأعين الى السماء فى ترقب وقلق ، وينظر الفلاح الى حقله فى تساؤل : هل يظل النبات على ازدهاره ، أو يقتله الجفاف فى غده ؟

حورس يبشر بمقدم الفيضان السنوى . يأتى فى وقته ، ويذهب فى وقته . المياه الحمراء تطلع عند منف مع مطلع نجم الشعرى اليمانية ، قبيل فجر الشمس . يلقح النهر العظيم أرض الوادى بمياهه ، ويأتى ماء الحياة من السماء . تلتهب ، وتزلزل الأرض ، لتسيل دموع الآلهة ايزيس ، تأتى من الجنوب ، تكمن فيها روح أوزوريس الخالدة ، تفد بالطعام والمؤن

والخضرة ، وتروى الحقول القريبة ، والبعيدة عن مصادر المياه ، فتضحك الحقول ، وتزدهر الضفتان ، وتتساقط قرابين الاله حابى ، وتطير طيور الماء نحو الجنوب ، وتكتسى المعابد حلل الأعياد ، وتمتلىء مخازن الحبوب ، ويتخلق العشب للماشية ، ويسجد الناس للاله العظيم بقلوب فرحة .

فاذا أتى الفيضان آخت ، وأصبح العمل فى الأرض مستحيلا ، ألحقت الفلاحين بتخمير الكروم ، او بصناعات البردى كالسلال والحبال والصناديق .

وعندما يهبط النهر ، يبدأ الحرث ، يعقبه بذر البذور . ثم تطأ الأبقار والجواميس والأغنام والخنازير ما ألقى من بذور ، فتطمرها فى الطمى اللبن ، حتى يزدهر المحصول فى الربيع ، فنبدأ فى حصاده .

وحتى يأتى الفيضان فى موعده تماماً ، كنت أقدم للإله حابى عشرات التماثيل الصغيرة ، من الذهب والفضة والفيروز والنحاس والرصاص . وأقدم إلى الآلهة ربيت ـ زوج الإله حابى ـ تمائم وأقراطاً وخواتم وتماثيل صغيرة ، وأخلص فى اقامة الأعياد والاحتفالات العظيمة ، وأذبح الماشية والطير ، وأضوع البخور ، وأصلى للنعم ، وأقدم للآلهة هدايا من العجول والثيران .

لم يتخلف الفيضان آخت فى الأعوام المتتالية . كان يأتى فى موعده ، فيستقبله الناس بالفرحة والدعوات يغطسون فى النيل . يثقون أن الاستحمام فى مياهه أمان من المرض ، يقولون : هاهو ذا النهر العظيم قد أتى فى موعده . هاهو ذا النهر المقدس حمل إلينا ـ بلا تأخير ـ ما يحتاجه البشر والمزروعات من مياه . هاهو ذا النيل إلهاً قوياً عطوفاً طيباً ، يجرى من أصابع يدى أوزوريس ، يهب الناس الحياة من أنفاسه ، وتنمو على ضفتيه الأشجار والنباتات والحبوب والثمار وكل ما صنع الإنسان من مساكن ومعابد وقبور .

قيل انى استوليت على أراضى هؤلاء الذين يقيمون على ضفاف النيل وجوانب الترع .

ولم يكن ذلك صحيحاً .

وهب حابى العظيم أرضى ، فى توالى أعوام الفيضان ، قطعاً زائدة .

صليت للآلهة ، وقدمت القرابين في المعبد ، ووزعت الصدقات شكراً لما حدث . لكن شذاذ الآفاق ، ومن لا مأوى لهم ، هبطوا كالحشرة الضارة ، كالنبات الذى لم يبذره أحد . أقاموا فى الأرض . أفلحوها وأنتظروا الحصاد . وكان ذلك ـ كما ترون ـ تعدياً على ما لا يملكون ، ورفضاً صريحاً لارادة الآلهة . وحين طردهم أتباعي إلى حيث جاءوا ، فإنهم لم يرتكبوا الظلم ، ولا اعتدوا على مسالم . أعادوا الأوضاع الى ما كانت عليه ، وتوارى أهل الشر عن الأنظار . لاذوا بالكهوف ، أو انطلقوا فى الصحراء .

لقد سأل أوزوريس العظيم ولده الغالي حورس عن أجمل شيء فى الوجود . فأجاب حورس : انه علاج الظلم الذى لحق بأبيه !.

ألا بوجهى ، انى حاولت أن أدرأ الظلم عن نفسى .

قيل انى لفقت التهمة حتى أكيد لأعدائى .

وهذه فريـة .

كنت حريصاً على أن تظل الحدود الصحيحة في مكانها . لا أضيف إليها ، فأعتدى على حق جيرانى ، أسلبهم ما بحوزتهم من أراض . ولم آخذ قط ما كان فى حوزة الآخرين ، ولا منعت الماء الجارى عن أحد .

السؤال السابع

قال أوزوريس :
ـ ألا تعلم أيها الرجل أن المحكمة تعرف مدى الصدق والكذب فى كل ما تقوله ؟

قال زاو مخو :
ـ وأعلم كذلك أن المحكمة الموقرة تعلم بما أخفيه داخلى قلبى .

قال أوزوريس :
ـ فلماذا لا تسرد الواقعة كما حدثت . وتترك لنا ان كانت تنطوى على الخير أو الشر ؟

قال زاو مخو :
ـ هذا هو ما أحاوله أيها الإله المعظم .

جال أوزوريس بعينى الضياء فى القاعة الواسعة . ثم قال :
ـ هل قتلت نفساً بغير حق ؟

قال زاو مخو :
كنت أصحب زوجتى وأبنائى ، وأنا أجول فى مزرعتى . أشرف على عمليات الحصاد فى حقول البردى . جعلت منها معظم ما أزرعه ، لا يحتاج الى مزارعين ، فهو يظهر بنفسه فوق الأرض . يقلنا قارب القصب . يسبح فى أزهار البردى الطويلة . أرقب المزارعين وهم يخوضون ترع الرى ، أو يسوقون الماشية . وكان ثمة عمال آخرون فى أحواض بناء القوارب ، وفى الحظائر ، وفى بيوت المزارعين ، أو يصنعون من أوراق البردى وسيقانها ما يأتى لشرائه تجار القرى المجاورة من الحصر والسلال والنعال والفرش والأكياس والحبال والأكاليل والباقات .

وكنت أجلس ـ آخر النهار ـ فى بيتى المواجه لبحيرة هائلة ، تزخر بالأسماك ، ونباتات البردى ، يحوطها الغاب المتشابك ، وتطل على حوافها أشجار وارفة . يتناهى إلىّ صدى الضحكات والأغنيات وعزف الموسيقا من داخل البيت ، وأتأمل أزهار السوسن والبطاح والزنبق ، والطيور تحرك الماء ، ومن فوقنا العصفور الأخضر ، والسمان ، وطيور الكونوست . وفى المراعى القريبة : الغزلان والعجول البيض والكباش السمينة والماعز والبقر والخنازير . وفى بعيد ، منحدرات من كثبان الرمل لا تنتهى ، يتناثر فيها نخيل إلى امتدادات الأفق .

كنت أسلى وقتى بلعب الضامة ، مع أصدقاء لى ، ينزلون فى ضيافتى ، أو ملاحظة أبنائى وهم يلعبون . وربما استأجرت جماعة من المصارعين لتقديم عروضهم أمامى . وقد أخرج إلى صيد الصحراء . الأقواس والسهام وكلاب الصيد .

لم أكن أضمر سوءاً ولا شراً لإنسان ، حتى ارتكب أتباع ايتسن ـ جارى فى القرية المجاورة ـ ما جعل الخير يفر ، والشر يأتى .

كان عليهم أن يربطوا الماشية فى أثناء النهار ، بحبال متصلة بأوتاد ، فتأكل من نبات البرسيم ، دون أن تطأه بأقدامها فتهلكه . ولكنهم أخلوا سبيل الماشية من الأوتاد . أهملوا رعى الماشية فى الحقول . أكلت ، وأتلفت ، وداست عليها بأقدامها .

طرد أتباعي الماشية الضالة ، وحذروا رعاتها من العودة . لكن الماشية عادت فأكلت ، وأتلفت . وقتل فلاحو مزرعتي سبع أبقار وثلاثة ثيران وأقل من ثلاثين خروفا . فسطا أتباع ايتسن على حظائر ماشيتي . دمروا وسلبوا . أرادوا بالفوضى والخراب أن تدين لهم الأمور ، ويفرضوا سيطرتهم على ما ليس من حقهم ، ولا يملكونه .

فلما طال الخصام . وزاد إيتسن فجعل ثعلباً يسطو على دجاجاتي ـ وهو ما سأرويه فيما بعد ـ طلبت أن تكون الشمس حكماً بيننا . نقف أمامها ، نروى لها الحكاية ، لا نضيف ولا نحذف ، انما نروى ما حدث بتفصيلاته ، فتقضى الشمس بما تراه صواباً .

لكن الأمور أخذت صورة البشاعة ، حتى تمنيت لو كنت ميتاً ، أو دفن الناس جميعاً . لا تحمل امرأة ولا تلد ، حتى تخلو البلاد من نبات شرير ، جديد . الجار ينظر الى ما بيد جاره ، والفقير يحسد الغنى على ما وهبته له الآلهة ، والرجل يجلس في داره ، لا شأن له بجاره الذى يعلو صراخه وهو يذبح ، والأشياء الطيبة ولت ، والخوف من الآتى هاجس الجميع . وحاول البعض اغتيال الملك ، اجتثاث الشجرة التى يفيء ظلها على الناس .

وأمر ايتسن أتباعه ، ففتحوا الجسور فى عز وقت الفيضان . انحدرت السيول ، فأغرقت حقولاً لى فى ناحية "آثيت تاوى" ، وأغرقت محاصيل الفلاحين المساكين فى قرى أخرى مجاورة .

لم يكن حابى المقدس مسئولاً عما حدث . وهبنا المياه لنزرع ونحصد طعامنا . لكن جارى ـ بتصرفه ـ وسد كل شىء فى حضن الخطر . وكان يجب أن أرد اعتداءه بمثله .

وارتحل إيتسن الى دنيا الغرب المظلمة . لا يتألق فى بيته السفلى نور ، إلا إذا عبرت الشمس من فوقه فى رحلتها الليلية .

عاقبته الآلهة على طمعه ، فمات دون أن ينال شيئاً . وقدم إلى عدالتكم ، لتعاقبوه ـ هذه ثقتى ـ بما فعل . لم أتدخل فى ذلك كله ، ولا شاركت فيه .

انى لم أكن عنيفاً قط مع أى إنسان . لم أقتل ولا حرضت على القتل . وعندما أمرت بازهاق روح إيتسن ، فلأنه كان عدوى . وكان يدبر للسطو على أرضى ، ولقتلى .

كان يريد استدراجي إلى الموت بالحيلة . فطنت إلى تدبيره ، فسبقته الى رد ما كان يدبره . أمرت أعوانى ، فقتلوه بلا هوادة ، وذبحوه بلا رحمة . دفع ثمن ما سولته له نفسه الشريرة .

قيل انى حرضت أتباعي على ما فعلوا ، لأن ايتسن كان هو الشخص الذى وافق ميرية على طلب الطلاق ، كى يتزوجها مانيروس . لكننى اكتشفت ـ في لحظة ـ أنه من الصعب على المرء أن يأكل خبزه ، دون أن يتنازل عن جزء من طهارته .

أنا لم أفعل إذن ، إلا أنى هزمت عدوى ، وذبحت أعوانه . لم أبادره بالعداء ، لكنه هو الذى أسرف في عداوته ، وحاك التدبيرات ، وأتلف أعوانه الكثير من البردى في حقولى . وكان على أن أرد بمثل ما فعلوا وأقسى . أمرت أتباعى ، فنزلوا على خيام أعوانه ، بعد أن ذهب رع المبجل إلى سريره ، فى الغرب . أعملوا فيهم القتل والذبح ، وطاردوا من تبقى منهم إلى حيث يبذرون شرهم فى أرض بعيدة .

كنت فى موقع الخير . ولم يكن هذا وحده يكفى . واجهت الشر حتى قضيت عليه .. فهل أخطأت ؟.

ألم يدبر أعداؤكم ـ الذين بددهم نور رع ـ قتلكم ؟ ألم يغروا نفسكم الطيبة ، حتى دخلت الصندوق ، ثم أغلقوه ، حتى غادرت الروح جسمها ؟ ألم يتناس الأشرار ذاتك الإلهية ، فذبحوا الجسد الطاهر فوق شاطىء "نديت" ؟!

السؤال الثامن

قال أوزوريس :
ـ أيها الرجل أنت لا تسرد الوقائع . ولكنك تحاول تبرير ما فعلت .

قال زاو مخو :
ـ أنا لم أحاول إلا رواية ما حدث دون زيادة ولا نقصان .

أردف بصوت متذلل :
ـ إن كل أملى أن تثق المحكمة بصدق ما أقول .

قال أوزوريس :

ـ هذا هو السؤال الثامن ، بالترتيب الذى ينبغى أن يرد به كل الماثلين أمام المحكمة : هل وقعت ـ ذات يوم ـ أسيراً للغضب ؟ وهل تصورت نفسك الفرعون ، فاستخدمت السوط مثله ؟

قال زاو مخو :

كروم العنب تتسلل على الجدران . تظلل جانبى الساحة الخلفية ، المفضية إلى البيت ، وفروعها العالية المتشابكة فوق أغصان التكعيبة ، تتدلى منها العناقيد ، وتتكرر رحلة القاطفين القصيرة بين التكعيبة والدنان الهائلة آخر المكان ، يلقون فيها بالعناقيد التى امتلأت بها المقاطف .

لم يكن الأمر شاقاً على أى نحو ، والأجر كان محسوباً بما يكفى القاطفين قوت أيامهم . لكن نوازع الشر تحركت فى النفوس ، فاستبدلت الهتافات بالأغنيات الجميلة ، أغنيات ضد صاحب الأرض والحكومة والفرعون نفسه . وحين أراد تحوتى قائد الشرطة أن يتدخل ، استمهلته حتى يأخذهم التعب ، أو يفيقوا لخطورة ما يفعلون . لكن الهتافات اجتذبت أصواتاً أخرى ، فى أماكن قريبة وبعيدة . وتألمت وأنا أشاهد هؤلاء الذين شاركونى حياتى ، وألفت رؤيتهم ، وسماع أغنياتهم ، يواجهون بالصراخ كرابيج الجنود ، حتى صمتت الأفواه تماما ، وان استؤنفت الطوابير بين التكعيبة والدنان الهائلة آخر المكان .

حزنت لما حدث . وحين قدمت زوجتى إلى غرفة نومى ، أهملت ايفاءها حقها ، وأوليتها ظهرى .

كانت الكروم مثقلة بالعنب ، وكان عصيرها غزيراً بما لم يحدث فى الأعوام السابقة .

التكعيبة الهائلة الممتدة تفرح قلبى . وفرحتى تتضاعف عندما أراقب العمال وهم يدهكون العنب فى الدنان الحجرية ، يغنون ويرقصون وهم يغوصون فيه بأقدامهم ، والعصير ينساب من الثقوب إلى الحوض الكبير ، قبل أن ينقل ـ لتخميره ـ فى الأوعية . وتيقنت أنى أخلصت فى دعواتى إلى آلهة الكروم "شا" كى تهبنى محصولاً وفيراً فى نهاية العام .

عندما اصطبغت السماء بأرجوانية الغروب ، قدم إلى فى مجلسى ، على

ضفة النهر ، خمسة عشر ، وربما أزيد ، من الفلاحين . هزوا رءوسهم لشيخ يتوسطهم ، فتكلم :

ـ نرجو ـ ياسيدى المبجل ـ أن تهبنا اهتمامك .

سحبت نظراتى من الجمال المحيط بى ، واتجهت إليه .

قال :

ـ نحن نعانى الجوع والعطش . ولم تعد لدينا ملابس .

قلت بدهشة :

ـ وماذا تريد أن أفعله ؟

قال :

ـ نحن لا نطلب غير ما يمكننا من الحياة !

أضاف بلهجة وعيد :

ـ ان لم نحصل على حقوقنا فسيكون علينا أن نشكو إلى جلالته .

ولم يكن الرجل صادقاً فيما قال .

كانوا يقفون أمامى ، ويتحركون ، ويتحدثون ، وتعلو أصواتهم . وكانت أبدانهم قوية بما يجعل من الجوع فرية مختلقة . حتى الثياب الرقيقة أسفل أجسامهم ، فرضتها حرارة الجو ، وليس لأنهم لم يعد لديهم ثياب .

لقد أسديت لهم من الجمائل ما يملأ نهراً ، لكنهم صاروا ـ بما أسديته لهم ـ ثيراناً تبحث عمن تنطحه .

قلت :

ـ ما أراه ـ أيها الرجل ـ أنكم فى خير حال !

تعالى صوت لم أتبين صاحبه :

ـ نحن لن ننصرف قبل أن نحصل على حقوقنا .

قلت وأنا أغالب الغضب :

ـ هل تدعون إلى العصيان ؟

قال الشيخ بلهجة يشوبها تهديد :

ـ سئمنا هذه التلميحات .. إنما نطلب الحصول على حقوقنا .

قلت دون أن أرفع سوطى :
ـ انصرفوا الآن . ومن لديه حق فسيحصل عليه كاملاً .

علا صوت الرجل ، فبدا التهديد واضحاً :
ـ بحت أصواتنا ، ولم نحصل على شىء . نحن ـ أيها السيد ـ لن ننصرف .

قلت بحسم :
ـ فلتقع على رءوسكم مسئولية ما ارتكبتموه .

حدست أن الفلاحين لم يقدموا على ما فعلوا . لم يمتنعوا عن العمل ، ويهتفوا ، ويغضبوا جلالة الملك ، إلا بتحريض من ميرية وصديقها مانيروس . بذل لهم الرجل ـ فيما يبدو ـ واستمال نفوسهم ، فأثاروا العصيان ، وطالبوا بما ليس من حقهم . نقل لى أتباعى وخدمى ما كان يقوله للفلاحين تحت الأشجار ، وعلى ضفاف الترع ، وداخل البيوت .

قال : إنى اشتريت موظفى الملك ، وأعطيتهم من أموالى ، ليسرقوا من أموال الفقراء .

ولم يكن ذلك صحيحاً .

وادعى أن الزمان غابت عنه ملامح الحق ، ولم يعد يفرض رأيه ولا سطوته إلا الرجل العنيف . كلمته مسموعة ، والكل يخشى بأسه ، والملك فى قصره النائى ، غافل عما تحياه المدن والقرى والمعابد من مظاهر الشر .

وقال : ان ثمار تعب الفلاحين فى الحرث والحصاد ، تذهب الى الرؤساء والسادة ، فلا يبقى لهم ما يعين على أعباء الحياة .

وقال : ان الاستقامة أصبحت منبوذة ، والظلم يضرب أطنابه ، والعدل كأنه أسطورة ، والفقير بلا حول يدفع به الأذى عن نفسه .

وقال : لقد آلت مقاليد الأمور إلى أيدى الأشرار والمفسدين . لم يعد للطيبين مكان فى هذه الدنيا .

ولم يكن ما قاله مانيروس صحيحاً .

فقد ملأت الصوامع لأتباعى بكل ما يحتاجونه : الفطائر واللحم والملابس والنعال . حتى الروائح العطرية أمرت بتوفيرها لهم ، فلا يشغلهم إلا العمل وحده . من يتكاسل ، أو يولى العمل ظهره ، يواجه عقابى بلا رحمة .

صحت ، فأحاط أتباعى بهم . اقتادوهم الى حظائر الماشية ، فلم يفلتوهم ، حتى أتتهم أوامرى . وشم المتمردون بالحديد المحمى ، ليكونوا عبرة أمام الآخرين حتى آخر العمر .

أنا لم أكن فظاً ولا نزقاً ، ولا أرخيت لجام حمقى ، فأجبر الفلاحين على أن يظلوا عندى بغير إرادة منهم ، ولا أهتم بما يقوون على أدائه .

لكننى لم أقدر أن أرحم هؤلاء الذين أصاخوا أسماعهم لصوت الشر ، فتمردوا - بلا وازع - ضد ابن الآلهة .

ألم يذبح الملك أعداءه ، ويقضى على أبنائه ، عندما دبروا للثورة عليه ؟
أنا لست إلا حملاً ضعيفاً فى خراف الملك !

السؤال التاسع

قال أوزوريس :
- لقد استغنيت - أيها الرجل - عن الكلمات المطلقة . ورويت وقائع يسهل على المحكمة مناقشتها .

أخلى زاو مخو وجهه للفرحة :
- ان سعادتى بلا حد ، لأن الآلهة صدقوا ما قلت .

قال أوزوريس :
- لم أقل ذلك . إنما أبديت رضائى عن نبذ الكلمات التى لا تفيد شيئا .

قال زاو مخو فى خوفه :
- هل أنا مدان ؟

قال أوزوريس :
- البراءة والادانة رأى الآلهة ، بعد أن تجيب على السؤال الثانى والأربعين .

عدل تاج الآنف فوق رأسه ، وأضاف :
ـ هذا هو السؤال التاسع : هل أنت برىء من التطلع إلى جسد أمك أو خالتك أو أختك أو ابنتك ؟

أغمض زاو مخو عينيه ، ثم فتحهما ، وقال :
أذكر هذه الحكاية القديمة : مضى رع فى أفق السماء الغربى . أظلمت الأرض ، فأصبحت كالقبر الساكن ، ودخل الناس منازلهم ليناموا ، وتهدأ حركتهم . لم يعد إلا أضواء متناثرة هنا وهناك .

قدمت إلى الإله ذبيحة المساء . ثم خلعت عنه ملابسه وتيجانه ، وأحرقت البخور أمام هيكله . ورتل الكهنة أنشودة الليل . ثم أغلقت أبواب المقصورة ، ليقضى الإله ليله فى سلام .

كنا بعد تناول العشاء ، نقضى ساعتين أو أكثر حول السراج المدخن ، قبل أن يذهب كل واحد إلى غرفة نومه .

قالت لى ميرية :
ـ شكا لى فلاحو القرية المجاورة من أنك تمنع عنهم المياه بلا سبب .

قلت :
ـ توزيع المياه مسئوليتى التى عهد بها إلىّ جلالته .

قالت وهى تحدق فى وجهى بما لا تفعله امرأة تحترم زوجها :
ـ فلماذا لا يتم ذلك بالتساوى ؟
قلت :
ـ هل أعطى صاحب الأرض الصغيرة ، مثلما أعطى صاحب الأراضى الواسعة .

علا صوتها :
ـ انهم يشكون من موت زراعاتهم .

قلت وأنا أهز رأسى فى عجب :
ـ لا يحسنون استخدام المياه . فمم يشكون ؟

فاجأتنى بالقول :
ـ ألا ترى ـ يازوجى العزيز ـ أن من يعانون تصرفاتك ، يفوقون هؤلاء

الذين أفدتهم بعطفك .

وأنا أقاوم غضبي :

ـ أنت زوجتي الجميلة الطيبة . فلماذا تتدخلين فيما لا تحسنين فهمه ؟

كنت أحبها ، وألبي ما تطلب . لكنني تعلمت ـ منذ حداثتي ـ ألا يكون للمرأة ـ مهما أحببتها ـ رأي فيما أقرره . حتى دعوات أمي القليلة عليّ ، رفعت بها يديها إلى السماء ، لأني كنت أرفض رأيها في أمور حياتي ، باعتبارها امرأة !

ملت من حجرة الطعام إلى المطابخ . تبدو في جوانبها أفران ومواقد للوقود وأخشاب ، بينما تناثرت فوقها ، وعلى الجدران ، آنية الطبخ والدسوت والدلاء والأباريق والزلع الفخارية والحقائب والأكياس والسلال والأسبتة .

أطفأت السراج جانب باب المطبخ ، واتجهت ـ عبر جناح السيدات ـ إلى غرفة تطل على الجبل ، وعلى بهو ذي أعمدة ، يتوسطه حوض ممتلىء بالماء .

كنت أحتفظ في الغرفة بأوراق التقاضي ، كالوصايا ، ومحاضر المحاكمات ، وعقود الأراضي ، وقوائم المطلوبين للعدالة في محكمة العاصمة . أخلو إلى نفسي ، أقلب ما يشغلني ، وأتوصل فيه ـ بإلهام الآلهة ـ إلى رأي . أريكة طويلة ، أجلس عليها للتمتع بالنسيم البارد المنعش ، وبالقرب من الشرفة حامل ، صفت عليه جرار الماء . كنت أتأمل المدفأة بهيئتها المصورة لثعبان البيت ، الإله أجاثوديمون الذي يمنع الفئران والطاعون . تعلو النيران فيها ، فتصنع أشكالاً وتكوينات ، واصطدام الرماد بحافة المدفأة المرتفعة ، يعمق من صمت الغرفة .

في عودتي ، اصطدمت قدمي برحاة لطحن الغلال . نسيت موضعها على قاعدة في جانب الردهة المفضية إلى المطابخ .

لم أكن أعرف أن أختي شبشت قدمت إلينا من مدينتها البعيدة ، أنزلتها ميرية في غرفتي التي اتخذتها للتأمل . كنت أفكر في أعدائي وما يدبرونه لي ، فلجأت إليها ، حتى أذني زوجتي عرفت أفواههم الطريق إليها . أعرف ـ وسط الظلام ـ طريقي الى حيث الأريكة التي تعودت أن أجلس

عليها . اصطدمت فى طريقى بما لم أكن أتوقعه . تحسسته ، فأحسست بطراوة الجلد فى أصابعى . هززت الجسد النائم برفق ، فتقلب . الظلام اللعين أسلمنى إلى جسد أختى شبشت ، فضاجعتها . لم أدرك ما فعلت إلا حين توضح لى صوت المها . توهمت أنها زوجتى ، وأن الصوت الذى كان يصدر من فمها هو صوت النشوة .

أنا لم أضاجع أختى متعمداً ، مثلما فعل الإله "شو" مع ابنته "نوت" . ملك نفسه حبه لها ، فضاجعها ، وأنجبت له ملايين النجوم . شياطين الظلام أعمت عيني ، فلم ألحظ إن كان الجسد الذى لامسته هو جسد شبشت أم جسداً آخر .

السؤال العاشر

رنا حورس إلى الإله الجالس على منصة القضاء ، فى هيئة الذى يطلب التحدث .

أشار إليه أوزوريس بمودة بالغة .

قال حورس :
ـ هذا الرجل ـ أيها الإله ـ جاوز الكلمات المشتراة إلى تبرير الخطايا .

قال أوزوريس :
ـ أيها الإله الذكى . على الرجل أن يتحدث بما لديه ، وعلى المحكمة أن تقرر ـ فى النهاية ـ صدق أقواله ، أو كذبها .

واتجه إلى زاو مخو بعينى الضياء :
ـ هذا هو السؤال العاشر : هل تعمدت إيذاء حيوان أو تعذيبه ؟

قال زاو مخو :
لم يعد بيتى ـ بفضل جلالته ـ يختلف عن قصر الملك فى شىء . الأسقف من اللازورد ، والأرضية من الرخام المصقول ، والأبواب من النحاس ، والمقابض والنقوش من الذهب . القاعات الفسيحة ، والحجرات المؤثثة ، وخزائن الثياب المبنية بالطوب .

ضمت الحديقة كل الأشجار التى تصلح للنمو . النخيل ، ونخيل الدوم ونخيل الكوكو وشجر الجميز وشجر زيت النخيل والزيتون والعناب واللبخ

والطلح والرمان والسرو والصفصاف والأثل وغيرها .

من بعد ، تظهر صوامع الغلال كأنها خلية نحل . وثمة ـ فى الشمال ـ مراقد الكلاب وحظائر الحيوان . وفى الناحية المقابلة ، المخبز وبيوت الخدم .

المشروبات المثلجة يأتى بها الخدم من الأزيار الهائلة ، خلف أوراق الأشجار ، بالقرب من باب السور الخارجي .

أضفت إلى القرية أراضى شاسعة ، بنيت بها الكثير من البيوت والمرافق والمعابد ، وأحطتها بأسوار من الطوب اللبن .

الطريق الى القصر مرصوف بأحجار البازلت . على جانبيه أسود لها وجوه كوجوه البشر . كل صف يواجه الصف الآخر ، كأنها حرس يحمى أبواب القصر من القادمين .

أجلس على مقعد ذى مساند جانبية . يحمل الخدم الابريق والطست والمروحة والمذبة . تحت قدمي يجلس الكاتب القرفصاء ، يسجل أوامرى ، يقرأ بريدى ، يكتب رسائلى الى جلالته ، وإلى موظفيه فى العاصمة .

كنت أحب التطلع إلى الأفق لحظة إشراق الإله فى صورته من عالم الليل ، مع الكلمات الأولى من نشيد الصباح . الأسماك تتقافز فوق المياه ، والطيور تصفق بأجنحتها ، والقردة تهلل للشروق ، وترتل الأناشيد التى تمجد الإله . وثمة رائحة اللوتس والعنبر والنرجس والزنبق والياسمين والريحان والورد . وصوت الكاهن يتناهى ـ من المعبد القريب ـ بأنشودة الصباح :

أفق أيها الاله الكبير فى سلام ..
أفق فإنك فى سلام ..

ويردد المنشدون :
مفيق أنت ، وانك فى سلام ..
أفق فى بهاء وسلام ..
أفق يارب هذه المدينة بحياة ..
إن الآلهة يمجدون روحك ، مضحين ..

أيها القرص المقدس ذو الجناحين ، الذى يضىء عند الاشراق من أمه "نوت" ..

إنك أنت الذى تفض ختم حجابك من الصلصال ، وتنشر على الأرض ذهبك المنثور ..

أنت يامن تولد فى الشرق ، ثم تغيب فى الغرب ، لتستريح فى معبدك كل يوم .

تنبهت على وقفة الفلاح بالقرب منى :

ـ ما هذا ؟

علت يداه بالدجاجات الميتة ، بحيث أراها ، وقال :

ـ ثعلب يتسلل من الناحية الجنوبية ، يأكل الدجاجات أو يكتفى بخنقها .

صحت بآخر صوتى :

ـ وأين أنتم ؟

قال فى صوت متخاذل :

ـ أجاد الهروب من شراكنا .

تساءلت بالتعجب :

ـ وهل تنتظرون حتى يقتحم غرفة نومى ؟

كنت أعرف جيداً أن الاله هو الذى صاغ كل حيوان من حيوانات الحقل ، وكل طائر من طيور الهواء ، وهو الذى خلق لنا النباتات والأسماك .

كنت أعرف كذلك أن من يعذب حيواناً ، أو يقتله ، فان عقابه هو الموت . من حق الناس أن يقتلوا بلا محاكمة كل من يقتل قطة ، أو طائر أبيس ، عمدا أو بدون قصد .

إن من يقتل الحيوانات المقدسة يلاقى الموت جزاء فعلته الشنعاء .

لكن الثعلب لم يسط على دجاجاتى من نفسه ، ولا مصادفة . أغراه ايتسن فتكرر سطوه على الدجاج . لا يكتفى بالتهام ما يستطيع التهامه منها ، وانما يعمل فيها الخنق ، ويتركها ، كأنه قد تم دفعه لأذيتى .

ترصد له أتباعى ، ليلة بعد ليلة ، حتى حاصروه والأشعة الأولى لرع العظيم تطل من الأفق الشرقى . أمرت بأن يبلغوا إيتسن سوء تدبيره . حطموا ثلاثاً من سيقانه ، وأطلقوه فى حقل ايتسن ، يقفز ما وسعه بساق واحدة ، ويسحب الثلاث المكسورة .

لم يكن همى إيذاء الثعلب المسكين . إنما أردت تنبيه ايتسن إلى سوء تدبيره .

أنا لم أطرد ـ ولا سرقت ـ قطيعاً من مراعيه ، ولا نصبت الفخاخ لطيور الآلهة .

وكنت ـ إذا ذبح الخدم حيوانا للقرابين ـ حرصت أن تكون روح الذبيحة بعيدة عن سيطرة روح ما .

ذلك عدم تقدير ، وشر .

ولكن سوء تدبير ايتسن ، قتل الثعلب المسكين بأيدى خدمى ـ كما قتله هو نفسه فيما بعد ـ تسلل ـ بأيدى خدم ايتسن ـ الى حظائرى ، يأكل مابها من خير . روح شريرة تسلطت على مخلوقات ، لا تملك لنفسها دفعا . وكان على أن أفوت على الشر تدبيره .

ان الشر قد يحيا طويلاً ، ولكن العدل يفرض نفسه فى النهاية .

السؤال الحادى عشر

بدا الضيق على وجه أوزوريس بما لا يخفى . قال :
ـ هأنتذا ـ أيها الرجل ـ تعود إلى الكلمات التى تحمل من التبرير والاعتذار ، أضعاف ما تحمل من الوقائع .

قال زاو مخو :
ـ إنى صادق ـ أيها الإله ـ فى كل ما أقول .

قال أوزوريس :
ـ فادخل فى الوقائع مباشرة .

استطرد وهو يضغط على الكلمات :

ـ هذا هو السؤال الحادى عشر : هل احتسيت من الشرابُ ما أفقدك عقلك ، وجعلك بلا ارادة ؟

قال زاو مخو :
كان ذلك منذ أعوام قريبة : عيد الربيع . أول الزمان ، أول بدء خلق العالم . يبين عن مقدمه بالزهور والخضرة ، وتمتلىء المخازن بالغلال ، وتهب النسائم تحمل أريج الورود والرّياحين .

كنت أستنشق روائح العطر وزيوته ، وأضع زهر اللوتس على ساقى ميرية وصدرها ، وأغتنم فرصة المرح والسرور ، قبل أن يأتى اليوم الذى أهبط فيه إلى العالم السفلى ، حيث يسود السكون .

احتفلت فى ضيعتى ـ كما ألفت كل عام ـ بعيد الربيع .

عزفت الموسيقى ، وتعالت أصوات المغنيات ، وتأودت الراقصات ، وركبنا الزوارق ، ومشينا على صفحة النهر ، واصطدنا الأسماك والطيور ، وغنينا ، ورقصنا على أنغام الناى والمزمار والجنك ، وأكلنا البيض والسمك المملح والبصل والخس والملانة ولحم الأوز والبط المشوى . وكانت رائحة البصل نفاذة من تآلف مواضعها تحت الوسائد ، وعلى عتبات البيوت ، ومن تكسير الخدم لثماره حتى يشمونها . وكان الأطفال يطوفون القرية ، والبصل حول أعناقهم ، يطرد الأمراض والحسد ، يبشر بالأيام القادمة السعيدة .

كان الخدم يطوفون بالكؤوس قائلين :
ـ احتفلوا باليوم السعيد !

وكنت أرحب بضيوفى ، وأقول فى ود :
ـ الحكيم ـ أيها الصديق ـ من يتمتع بملذات يومه قبل أن يختطفه الموت .

وأدفع الخدم إلى الطواف ـ مرات ـ بكؤوس الشراب :
حياة وصحة وقوة بحق آمون رع . فلتحل نعمة آمون فى قلبك ، ولتمنحك شيخوخة سعيدة ، فتقضى كل أيامك فى سعادة وسرور .

وأقول وأنا أرفع كأسى إلى فوق الرؤوس :
ـ اشرب . فى صحتك . فى صحة روحك . اشرب حتى تفقد الوعى .

وعش يوماً سعيداً .

فلتنس - ولو مؤقتا - ذلك العالم البعيد ، الذى لا نعرف كثيراً ما يدور فيه . ضمخ جسمك بالعطور ، واكس جسمك بالكتان الجميل ، واحرص على الفرح والسرور ، واسعد قلبك ! .
إحرص - أيها الصديق - على الاستمتاع بالحياة ، قبل أن تمثل أمام محكمة الآخرة !

وأنشدت المغنيات :
احتفل بهذا اليوم الجميل .
وتنسم عبير العطور الفواحة .
وضع باقات اللوتس على ساقى أختك وصدرها .
تلك الساكنة فى قلبك .
الجالسة بجانبك ، يحوطكما غناء المنشدين ، وألحان الموسيقا .
لا تعبأ بشئ .
إنما هى فرصة لانتهاب اللذة قبل أن تدخل الى عالم لا تستطيع أن تفعل فيه شيئاً .
لأنك تخلد فيه - مثل كل شئ - إلى السكون .

أقبل الخدم بالأوانى المملوءة بالماء ، فغسل الضيوف أيديهم ، وطافت الخادمات ، فتيات صغيرات ، يضعن أكاليل الزهور ذات الرائحة الطيبة ، حول أعناق الضيوف ، ويضمخنهم بالأدهنة المعطرة ، وفى يد كل ضيف زهرة من زهور اللوتس . ثم أديرت - ثانية - كؤوس الشراب .

وحين زارنى وزير الملك من مدينة "بى رمسيس" ، فانى أمرت أن يعنى به الخدم عناية خاصة ، فذبحوا له الخنازير ، وقدموا له ألواناً جديدة من الطعام والجعة والنبيذ .

وتوقيراً لمكانته ، فقد أسرفت فى دعوته إلى تناول النبيذ . واحتسيت عدداً مماثلاً لما احتساه من كئوس .

فى نهاية النهار ، أتى الخدم بنموذج لمومياء فى تابوت ، يصل طوله الى ذراع . عرضته على الضيوف - كما جرى العرف - لتذكيرهم بالتمتع بمباهج الحياة ، قبل أن ينتهوا - ذات يوم - إلى صورة المومياء .

أنا أعرف نصائح الحكيم آنى ، وأعمل بها ، فلا أفرط فى شرب الجعة . أعرف أنى إذا أسرفت ، فسوف أسقط على الأرض كطفل صغير ، ولا أعرف ما أقول .

ولم أكن أدخل بيت السكير ، فهو ـ فى نصيحة آنى ـ منبوذ ، محتقر من الجميع ، حتى من مشاركيه فى تعاطيها .

وكنت أعلم أن الخمر تؤذى الشرايين ، فتفقد المرء القدرة على اتخاذ القرار الأصوب . فأنا معتدل فى شرب الخمر ، بالقدر الذى تأذن به الآلهة ، فلا أتنقل برائحتها من حى إلى آخر ، أو أتخبط فى صلواتى ، أو تتعثر على شفتى الكلمات ، أو أحاول تسلق الأسوار ، أو أتصرف بما لا يليق .

ليس فى شرب النبيذ ـ باعتدال ـ ما يعيب .

ألم يكن أوزوريس المبجل هو أول من ابتدع زراعة كروم العنب ، وأول من صنع النبيذ ؟

وحين شاركت الضيوف ما شربوا ، شعرت أنى فقدت اتزانى . لم أثرثر ، ولا علا صوتى بما يليق . إنما شعرت بدوار ، وميل إلى القىء .

قدم لى الخدم كأسا به سائل للمساعدة على القىء ، فأفرغت ما بجوفى .

أما ضيفى المبجل ، فقد ظل ـ حتى غادر البيت ـ هادئاً ، ومتزناً . وودعته إلى نهاية الطريق باحترام وتوقير .

السؤال الثانى عشر

قال أوزوريس :
ـ هذا هو السؤال الثانى عشر : هل تطلعت إلى من هو أشد منك ثراء او مهارة ، بعينى الحسد او الحقد ؟

قال زاو مخو :
كم هو سعيد ذلك الذى يبذل النفس والقرابين بين يدى الآلهة .

لقد كنت أسبح بحمد الإله . أنشد له التراتيل ، أمجد أفعاله ، أقدم له القرابين ، أصادق كهنته .

كنت أخشى ما يحيط بى من الأشباح والأرواح الشريرة ، هؤلاء الذين حرموا نعيم الدنيا ، أو لفظتهم الآلهة من جنة السماء ، فهجرت قبورها ، تنفث الحقد والحسد والمقت على من تتمكن منه إذا وصل القارب إلى الشاطىء الشرقى ، وإذا انتقل - فى الليل - إلى الشاطىء المقابل .

ان شجرة الجميز المقدسة هى التى ظللت أوزوريس العظيم قبل أن يعود - بدعوات المبجلة ايزيس - إلى الحياة . إنها الشجرة التى صنع من خشبها تابوت الآله أوزوريس ، ويصنع منها الأثاث الجنازى والتوابيت والتماثيل والسفن ، ويقدم ثمرها الحلو ضمن القرابين على مذابح الآلهة .

كنت أردد - وأنا صغير - خلف أبى ، حين نلجأ إلى ظل شجرة جميز :

مرحبا بك أيتها الجميزة التى تضم الآلهة ، والتى تحتها يقف آلهة الآخرة . أنت يامن أطرافها قد أحرقت ، ويامن جذعها قد التهب ، ويامن تساويت فى الآلام . وأنت ياأوزوريس ، فهى تظلل عليك ، وتصد "ست" منازلك ، وأنت أيتها العذراء الرشيقة التى قد خلقت الروح .

لما كبرت ، كنت إذا اقتربت من الشجرة المقدسة ، أحرص أن أوفيها حقها من الاحترام ، وأمد يدى لجمع المياه التى تهبها الإلهة حاتحور داخل الشجرة .

الآلهة تسكن الشجرة . تطل برأسها من فروعها . فى يدها إبريقان امتلآ بالماء . فاكهة الجميز تغذى الراحلين . أرواحهم تنتقل على أغصانها ، وتظللهم بأوراقها ، وتطعمهم من ثمارها .

كنت أعرف - منذ طفولتى - أن بعض ثمار الشجرة المقدسة تحيى الموتى . ليست كل الثمار ، ولا أحد يعرف أيها على وجه التحديد ، ولكنها ثلاث أو أربع ثمار ، إذا دست إحداها فى فم الميت ، عاد إلى الحياة ، كأنه لم يبلغ الموت .

وكنت أعرف أن الشجرة الضخمة يحرسها ثعبان ضخم ، رأسه كرأس الثور ، وعيناه تقذفان اللهب ، وجسمه - الذى لا نراه - يلتف حول جذع الشجرة ، لا يفارقه .

أمام أبواب السماء العظيمة ، شجرة جميز هائلة . تجلس فوقها الآلهة ، وثمة جميزتان فى الجانب البعيد من السماء ، يمسك بهما الملك عندما يعبرون به ، ويجلسونه على الجانب الشرقى من السماء .

كان أونر يتبع قلبه نهاراً وليلاً ، ولا يتوقف عن الأكل والشرب ، وممارسة الحب ، وانتهاز كل فرص التلذذ . ويتباهى بأنه يستطيع أن يأكل ثلاثمائة رغيف فى اليوم ، وفخذ ثور ، ويشرب مائة كوب من الجعة .

كان يقول متفاخراً : انى أتمتع بالحياة ، ولا أشغل نفسى بحياة أخرى قادمة ، لا أعرف ان كانت حقيقية ، أم تنطوى على الخيال .

وكان يكثر ـ ربما لاغاظتى ، ولأنه يعلم جيدا ما بداخلى من حب للآلهة : أوزوريس وايزيس وحورس ـ من النطق باسم ست . يعلم أن نطق الاسم يعيد إلى الأذهان ما عاناه الآلهة الثلاثة الموقرون . المكائد والمظالم والمتاعب التى خاضوها . ولكنه ينطق الاسم ، ويعيد نطقه ويكرره ، ربما بلا مناسبة ، لمجرد أن يضايق من أخلص فى حبه للآلهة الثلاثة . وكان يجدر بى أن أوقفه عند حده . أن أطهر الأسماء المقدسة من دنس قلبه وشفتيه .

أونر هو الذى تسبب فى موت نفسه ، وفناء أسرته .

أما كيف كان ذلك ، فانى قد نصحته بألا يأخذ أوراقاً من شجرة الجميز التى تتوسط المقابر ، قبل أن يؤدى لها صلاة خاصة . شجرة الجميز ـ كما تعلمون ـ تروى الموتى ، وتظللهم بأوراقها ، وتشفى الأحياء كذلك من أمراضهم . من يقطع أحد أغصانها بدون أداء الصلاة ، أو يقدم قربانا من الفاكهة والخبز والماء ، واجه الموت ، وواجهت أسرته الفناء . رفض النصيحة ، واقتطع غصناً بكامله ليداوى أباه المريض . زاد ، فاقتطع جزءاً من قشر الساق . بذلت نصيحتى ، فلم يعمل بها .

قلت :

ـ أنت بهذا تعصى الآلهة .

قال ، شأن المتباهى بقوته :

ـ وما شأن الآلهة بشجرة جميز ؟

قلت :

- شجرة الجميز هى الجسم الحى للإلهة حاتحور على الأرض .

وهو يهز رأسه :
- الآلهة الحقيقية لا تمنع الخير عن الناس .

قلت :
- أد للآلهة حقها بالشكر .

قال فى استخفافه :
- انى أشكرها بأكل ثمار أشجارها .

فى اليوم الثالث ، نزلت صاعقة على بيته ، فاحترق هو وأبواه ، لا يمضنى الاحساس بالذنب ، ولا أشعر أنى أخطأت . قلت له ما ينبغى قوله . أصم أذنيه ، وفعل ما فعل ، فعاقبته الآلهة ، وذهب الى المياه اللانهائية ، والعدم واللامكان والظلام .

أذته الآلهة لتصور نفسه فوق البشر .

لم أنظر الى أونر - ذات يوم - بعين الحسد ، ولا تمنيت موته . وكنت أخشى الحسد عموماً فى كل ما حولى . عند مداخل البيت ، فى الحديقة ، فى العواصف التى يسببها التراب ، فى النار ، فى الماء الذى يحمله الخدم إلى بيتى ، فى الماشية داخل الحظائر ، فى ثمار الحقول .

الوصول إلى مكانة رفيعة هو أكثر الأشياء مدعاة للحسد . يعجزون عن جنى ثمار مثل تلك التى جنيتها ، يسرى الحسد فى دمائهم ، ويضمرون النيات الشريرة . يدخلون المناطق المظلمة ، ينسجون تدبيراتهم ، يصنعون الطلاسم والتعاويذ ، يتحينون الفرصة للانقضاض .

ان كل ما نحياه هو من تدبير الخالق . ما أراده الإله يتحقق ، فلا حيلة لامرىء فيه ، والنظر إلى ما بحوزة الآخرين خطيئة تفضى بصاحبها إلى مصير مؤلم ، ربما من قبل أن يمثل أمام محكمة الغرب .

السؤال الثالث عشر

قال أوزوريس :
- هأنتذا - أيها الرجل - تقترب أكثر مما أريده . لذلك فإنى ألقى عليك

السؤال الثالث عشر : هل مزقت الغيرة قلبك ـ يوما ـ بمخالبها ؟

قال زاو مخو :

الرجل الذى يقول لى : ليت لى ، يكون متحاملاً ومنحازاً ، وينظر إلى ما بحوزة جاره .

فاذا نظر الرجل الى ما بحوزة أخيه ، وقال : ليت لى فان إثمه يكون مضاعفاً .

ان عقابى بحرمان أبنائى الثلاثة : أوبا وسنموت وناخت من كل ما يئول إليهم بوفاتى ، لأنهم جاهروا بأنى أوثر ولدى نختى بما لم أقدمه إلى بقية أخوته .

قيل انى كنت أسرف فى إرضاء نختى ، بينما أقسو على أخوته الثلاثة بصورة لا مبرر لها .

وقيل انى كنت أوثر نختى بما لم أقدمه لهم .

ولم يكن ذلك صحيحاً .

انما هى كلمات سوء ، تعمدت زوجتى أن تحشو بها آذان أبنائى ، لينقلبوا علي بعضهم البعض ، وتثيرهم علىّ . كانت تريد أن تجعل أيامى ألماً متصلاً ، حتى أوافق ـ حين تطلب الطلاق ـ على ما طلبت .

لم أوثر نختى على أخوته ، إنما قدرت فيه اخلاصه لجلالته ، بذل حياته من أجله ، محاربته لأعدائه ، وقضائه عليهم ، عودته محملاً بالأسلاب والهدايا والأسرى .

تعقب الغزاة إلى نهاية أفق الصحراء . دمر أرض ساكنى الرمال وحصونهم . دك القلاع ، وحرق الدور ، فصارت خراباً . إقتلع ما على الأرض من زروع وكروم ، وأخذ الماشية والمراعى والآبار ، وعاد بعشرات الآلاف من رؤوس الأعداء وأسراهم ، ليلقوا تحت قدمى جلالته كعبيد بلا ثمن .

أما من أفلتوا من الموت ، فقد أصبحوا رقيقاً ، ودمغهم نختى باسم جلالته ، وفعل بنسائهم وأبنائهم الشىء نفسه .

استتب الأمن إلى نهاية الحدود الفاصلة بين الفرعون والبلاد الأخرى . صارت كل الأراضى الأجنبية تخافه ، وقادة الدول يعملون حسابا لاسمه . فهو بطل متفرد بلا نظير ، لاساعد أشد من ساعده ، ولا ضربة أقوى من ضربته ، ولا رمح أشد فتكاً من رمحه . عرف الجميع بقوته وسرعته ، وتفوقه فى استخدام العربة ، وفى حسن اصابته للمرمى بقوسه . وكان قوياً بحيث يصعب التغلب عليه ، فهو قادر على أن يحنى قرون أعدائه ، ويشل أيديهم .

ثم جعله جلالته قائداً لجيشه أعواماً طويلة . لم يحل صغر سنه دون أن يكون قائداً لكل القادة . صار النار المحرقة لأعداء الملك . الظل الوافر لمن أعلن الذلة والاستكانة . وسجلت انتصاراته على صروح معابد الأرباب والمعابد الخاصة وجدرانها ، وعلى جدران المقابر ، وعلى المسلات والنصب .

وأكرمه جلالته بما لم يحدث مع أى شخص آخر . جعل له الصدارة على بنيه ، وأجلسه قبلهم ، وأقطعه الأراضى الخصبة فى مناطق شتى من أرض جلالته .

كان جلالته يعلم أن الغزاة لن يسكتوا عن الهزيمة التى قصمت ظهورهم . ينتظرون حتى التعافى ، ثم يعاودون الكرة ، يلجأون إلى العدوان مرة أخرى .

تذكر حين كانت البلاد آمنة مطمئنة ، لا تخشى شراً ، ولا تتوقع أذى . ثم هبت عليها ريح السموم من كل جانب ، تحمل الغزاة . انقضوا على المدن والقرى ، استولوا على المحاصيل ، خطفوا الماشية ، سلبوا الأمن والرخاء ، أنزلوا الويل بساحتها ، سلطوا العذاب على أهلها الوادعين . ووفدت حملات الغزو بين فترة قصيرة وأخرى من الشرق ، ومن الغرب ، وربما أتت بقوارب من البحر .

شاع فى البلاد الخراب والدمار ، وانتشرت الأرض الحمراء ، كأن الخضرة اجتثت من جذورها ، وتكسرت صناديق الأبنوس ، واقتلعت الأشجار وديست الأعشاب الخضراء ، فصارت الحقول مجدبة ، وخربت المنازل ، وسال الدم فى كل مكان ، وطفت الجثث فوق مياه النهر ، وأكلت التماسيح حتى ازدردت مالم تعد بحاجة اليه . كأن رع العظيم قد رفع عن

الناس عطفه ورعايته .

قضى على الفرح ، فلم يعد يشعر به أحد ، واقتصرت الأغنيات على كلمات الحزن ، وصار الناس يقولون فى أسى : ليتنا لم نصبح من هذا العالم . ليتنا لم نولد من أمهاتنا . أصبح الحزن فى كل قلب ، لم يسلم من ذلك كبير ولا صغير .

وامر جلالته "نختى" ، فخرج على رأس قواته ، يقضى على موجات الغزو من منابعها ، ويدمر محاولات التسلل . شتت أعداء الملك ، وطردهم حتى تفرقوا فى الصحراء ، فلم تعد لهم - فيما بعد - قائمة ، وأصبحت البلاد الأخرى تابعة لجلالته ، وتعالت أصوات الناس مغنية :

لقد عاد الجيش بسلام ..
بعد أن حطم بلاد ساكنى الرمال ..
عاد الجيش بسلام ..
بعد أن دمر بيوتهم وحصونهم ..
عاد الجيش بسلام ..
بعد أن قطع أشجارهم وكرومهم ..
عاد الجيش بسلام ..
بعد أن قتل من جنودهم عشرات الألوف ..
عاد الجيش بسلام ..
بعد أن جلب الأسرى والأسلاب والهدايا ..

عاد نختى بأعداد لا حصر لها من الأسرى والأسلاب والهدايا : أشجار البخور والعطور والمر والأبنوس والقرفة والعاج والكحل والبلسم والراتنج واللازورد والأصداف وعصى الصيد والماشية والكلاب والقردة والنسانيس ، والحيوانات النادرة مثل الثيران ذات الأسنمة والزراف والتياتل والفهود . وهب الملك له منها مثلما وهب لبقية ضباطه . باعها الضباط لمن شاءوا من السراة وملاك الأراضى وسادة القرى ، بينما فضل نختى - بكل التأدب - أن يهديها إلى أبيه .

لم يفعل أخوته ذلك ، أو ما يقرب منه . ظلوا مشغولين بأنفسهم ، وبمخالفة أوامرى ، وبالانصات الى الكلمات السخيفة التى حشت بها ميرية آذانهم ، واتقدت نيران الغيرة فى صدورهم ، فتصرفوا بما لا ينبغى فعله .

أكثرت من الأبناء حتى يساعدونى فى عملى . أوكلت الى أبنائى الثلاثة ـ بعد أن اخضرت شواربهم ـ مهام مراقبة الفلاحين والصناع فى عملهم ، ومتابعة عملية تعداد الماشية ودمغها ، والاشراف على جمع الحصاد ونقله .

لم أتصور أنهم سيرفضون ـ ذات يوم ـ مساعدتى . تعهدتهم بالرعاية ، وأتيت لهم بكل ما طلبوا ، وبالطعام الشهى والثياب الجميلة . وشجعتهم على التفاخر بأبوتى ، فقالوا لأقرانهم : نحن أبناء هذا الرجل الذى يعطى المثل لما يجب أن يكون عليه الآباء . إنه لا يدخر وسعاً فى رعايتنا والانفاق علينا .

ولكن المفاجأة أذهلتنى فى تغيرهم ، وتناسيهم لكل ما فعلته من أجلهم . صاروا يناقشوننى لا باعتبارى أباً لهم ، وانما باعتبارى جاراً أو صديقاً ، وربما تاجراً يأخذون منه ويعطون .

قال ناخت ، ونحن فى جلستنا بعد تناول العشاء :

ـ لقد نما شاربى وذقنى . فهل تأذن لى أن أستقل بحياتى ؟

أهملت كوباً فى يدى :

ـ ومن يباشر العمل فى المزرعة ؟

قال سنموت :

ـ هذه مزرعتك ، وليست مزرعتنا .

ضربت المائدة بقبضة يدى :

ـ عندما أرحل الى دنيا الغرب ، فانكم سترثون كل ما أملكه .

قال أوبا فى صوت متذلل :

ـ لسنا نتعجل رحيلك ، وانما نطلب المساواة بين الأخوة .

اتجهت اليه بنظرة متربصة :

ـ أشم فى هذا الكلام رائحة التحريض .

قال سنموت :

ـ لماذا تدفعنا للعمل فى خدمتك إلى نهاية حياتنا ؟

احترمت أبى ، وأطعته ، ونفذت أوامره . وكان على أبنائى أن يفعلوا الأمر نفسه ، فيحترموا أباهم ، ويطيعونه ، وينفذوا أوامره .

قلت :

ـ هذا سوء أدب ، لا أحبه !

علا صوت ناخت بالحدة :

ـ أنت تولى كل اهتماماتك لنختى ، وكأننا لسنا أبنائك .

قلت :

ـ اذ ا أوليه اهتماما أكثر ، لأنه يغيب عنا لأيام طويلة . ولأنه ضابط فى جيش الملك ، فإن حياته معلقة بخوض معركة .

قالت ناخت :

ـ نحن نعمل فى المزرعة منذ الصباح إلى الغروب فلا نحصل إلا على ما يملأ بطوننا .

قلت :

ـ أنتم أبنائى ، ولستم خدماً لى .

لقد حرصت على أفراد أسرتى . سعيت من أجلهم ، وشقيت ، وأجزلت لهم . ومع ما بلغته من مكانة ، فانى لم أبخل على بيتى بمساعدة . لا أعتمد على الخدم ولا العبيد ، وانما أضع كل شىء فى مكانه ، وأتابع أمور البيت بنفسى ، وألبى ما تطلبه ميرية والأبناء .

قالت ميرية :

ـ الأبناء لا يكرهونك . إنما يكرهون أفعالك .

قلت :

ـ لماذا لا يشاركهم نختى رأيهم .

قالت :

ـ أفسدته هو نفسه فصار مثلك .

قلت :

ـ حاولت أن أفيد منهم ، فلم أفلح . أوكلت إليهم الاشراف على أرضى ومحاصيلى ومكاتب ضياعى ، فلم يوفقوا فى شىء من ذلك كله .

وقلت في غضبي :
ـ لقد أوقعني حظي في زوجة سيئة ، فورثت أبنائي تربية فاسدة .

أكره الغيرة ، وأكره من تستولي على نفوسهم .

إن الذي يترك نفسه لمشاعر الغيرة ، عليه أن يدفع ثمن ضعفه . وقد كان العقاب البدني الذي طالما عاملت به أخوة نختي الثلاثة ، لأنهم تركوا الغيرة الشريرة تتسلل إلى نفوسهم ، فتبدد مشاعر الود والصفاء .

أنظروا اذن : لقد ركب أبنائي الثلاثة رءوسهم ، ولم يأبهوا لقواعد السلوك الذي يجب أن يتجه به الأبناء نحو أبيهم ، وتحدثوا بالباطل والكذب ، وأساءوا التعبير ، فقومتهم بالضرب حتى يعتدل شأنهم .

ان الذي ينظر إلى ما بيد جاره ، تعاقبه الآلهة . فماذا عن الأخوة الذين نظروا الى ما بيد أخيهم ؟. عاقبتهم ـ بقسوة ـ كي أحميهم من أنفسهم . لا يشغلني إن كانت مشاعرهم قد تأثرت نحوي ، وانهم لم يعودوا بالاخلاص الذي يجب أن يوليه الأبناء لأبيهم .

ضل أبنائي الثلاثة ، وخالفوا نهجي ، ولم ينفذوا تعاليمي ، وساءت تصرفاتهم في داري ، وتحدوا كل ما أقوله ، ودنسوا أقوالهم ـ دائماً ـ بالكلمات القبيحة . وكانوا لا يلقون بالا الى أحاديثي ، ويبدون التأفف من نصائحي .

خلفوا أقفيتهم لكلماتي ، واعتبروا أنفسهم في غير حاجة إلى كل ما أقول .

أضاف نختي إلى الحدود التي كانت لي ، بمجهوده الشخصي ، وهبات جلالته . أما أبنائي الآخرون ، فقد أساءوا إلى الثقة التي أوليتها لهم . وكادت أرضي ـ في أيديهم ـ تضيع ، وتذهب للآخرين .

السؤال الرابع عشر

قال أوزوريس :
ـ لعل اجابتك على هذا السؤال ، ترضى ولدنا الحبيب حورس .

قال حورس :

ـ ما أريده ، وأثق أن هذا هو ما تريده المحكمة أيضا ، أن يروى الماثل أمامكم ما حدث تماماً ، بلا اضافة ولا حذف .

قال أوزوريس :

ـ هذا إذن سؤالنا الرابع عشر : هل تحدث امرؤ عنك بخير ، فتحدثت عنه بسوء ؟

قال زاو مخو :

عندما حدثتني زوجتي عن المرض الذى ألزم طفلى نختى ـ لم يكن لى آنذاك أبناء سواه ـ فاني غادرت مائدة الطعام ، دون أن أتناول شيئا ، واتجهت إلى غرفته .

لاحظت ان الرعدة أخذت جسمه . تحسست أعضاءه ، فبدت فى برودة الثلج ، بينما العرق يبلل وجهه .

تصورت أنها ضربة شمس .

أمرت ، فحيك له جعل بطرف ثوبه ، ليأخذ الحمى . وطلبت ـ لتهدئة السعال ـ أن يقدم له بذر الكراوية ، وعسل النحل .

فلما استمرت الحمى ، تصورت أن ما أصاب الطفل هو عرض للتسنين . أمرت بسلق لحم فأر ، ووضعه فى طعامه . لكن الطفل ظل على حاله .

وقدم الطبيب براسه الحليق ، وجلد الفهد على ظهره ، فى حين التف جسمه بثوب من الكتان الغليظ ، يتبعه شابان ، يحمل أحدهما كتاباً أسود ، ويحمل الآخر سلة مليئة بالعقاقير .

لجأ الطبيب فى علاجه الى العقاقير ، والى الأعشاب البرية والنعناع والكزبرة والشيح والنبق والخردل والبخور والزعفران والكرفس والفجل وغيرها . وضع تميمة فيها الأذى لمن يريد الطفل بسوء . ضمنها أعشاباً وبصلاً معطساً ، وعملاً مستحباً للأحياء ، مراً للموتى .

ثم قال الطبيب :

ـ هذا مرض ساقط من السماء . الهواء يصبح ساخنا بعد الغروب .

أضاف بلهجة يائسة :

ـ هذا الصبى بين يدى الآلهة .

تأمل الخادم ايسمخ طفلى المريض بعين مدربة . تحسس مواضع الألم ، وقال فى ثقة :
ـ هذا الولد محسود .

تلا رقى فوق رأسه ، وضوع بخوراً فى أرجاء البيت ، لتذهب الأرواح الشريرة . شممت رائحة الفاسوخ . قال : انه يفسخ العين المؤذية . قص ورقة بردى ، صنع فيها ثقوبا صغيرة ، هى أعين الذين قد يكون حسدهم وراء ما يعانيه .

وهمس لى الخادم :
ـ هل تكون الحمى التى أصابت الطفل من سحر هيرا ؟

هيرا ؟
هل يكون ـ فعلاً ـ هو الذى دبر مرض الطفل ؟!

كان هو حاكم الاقليم قبل أن يعهد الى الملك بتصريف أموره . أولانى ثقته بما أثار حفيظة الحاكم . توالى رسله الى "بى رمسيس" بالدسائس والمؤامرات . وعرفت أن ما أصاب طفلى هو جزء من تدبير الحاكم لى .

قيل عن ساحر مدينة "ددو" القريبة انه عاش ما يزيد على الثلاثين عاما فى كهف منعزل داخل الصحراء . وقيل انه قضى تلك الفترة الهائلة يتعلم السحر من الآلهة المبجلة ايزيس .

سمعت عن سحره الكثير .

قيل انه أتى بالفيضان بعد طول غياب ، لما كتب بقوة السحر على قرطاس من البردى ، ألقى فى مياه النيل ، فأقبل الفيضان فى موعده تماماً . وقيل انه بلغ فى اتقانه السحر ان كل شىء يقول له : كن ، فيكون . يحول الأخشاب إلى عطور مقدسة ، والصخور إلى أحجار كريمة ، والنار اللاهبة إلى برد وسلام ، والرمال إلى تبر الذهب . ويتنبأ بالعاصفة قبل هبوبها ، والاعصار قبل مجيئه ، ويشق البحر إلى نصفين ، ويصل بين أطراف الجسم المقطوعة ، ويهب الحياة الى الجماد ، ويمتطى التماسيح دون أن تؤذيه ، ويعوم بين أفراس النهر ، ويصادق الحيوانات والزواحف والطيور ، حتى التى اشتهرت بميلها إلى الإنسان . وقيل انه كان يفهم لغة الطير والزواحف ، ويستدعى الموتى ـ حين يريد ـ من عالمهم . وقيل أنه

رد أفعالاً منكرة إلى مرتكبيها ، ورد بسحره سباع الصحراء وتماسيح الماء ، وطرد الثعابين والعقارب ، وقضى على شرور السموم والجروح والأمراض ، وأجاد تعاويذ الحب ، ورقى جلب السلطة والهيبة ، والتعاويذ التى تثير الجنون والمرض .

قال الرجل :
ـ انى أعرف سر الكلمات المقدسة . ولا يوجد من السحر ما يخفى علىّ .

قلت :
ـ هل أنت قادر بالفعل على أن تعيد ميتاً إلى الحياة ؟

اهتزت عصاه فى يده :
ـ لعل الآلهة تساعدنى على صنع ما لا يتصوره إنسان ، لكنها لن تساعدنى على صنع ما يقتصر أداؤه على الآلهة وحدها .

أقبل على التطهر . تضمخ بالزيت ، وتبخر ، ومضمض فمه بالنطرون ، وغطس فى مياه الفيضان ، واتخذ نعلين من الجلد الأبيض ، ورسم على لسانه علامة الحق بمداد أخضر ، قبل أن يدخل على الطفل المريض ليزيل السحر الذى حل بجسمه .

حرق البخور ، وتلا الرقى ، وأطلق طلاسم وتعويذات ، وخاطب ناساً مجهولين . ثم قال :
ـ هذه روح ضارة وعلينا أن نطردها .

كتب تعويذة على طبق صغير . صب الماء فيه ، فاختلط بالكتابة . ثم قدم المنقوع إلى الصبى ، فشربه .

وأمر ، فأحضر له الخدم خنفساء كبيرة . فصل رأسها وجناحيها . وضعها فى زيت مغلى ، ثم أضاف إليها دهناً دافئاً وماء ، ودعا الصبى لتناولها .

لجأ ـ بدعوات صادقة ـ إلى تحوت إله القمر ، ذى الهلال على رأسه ، وإله السحر ، والمؤلف الأعلى للرقى والتعاويذ .

طالبنى بأن أقدم القرابين إلى الآلهة . فإذا شفى الطفل ، أقمت لها تذكاراً باسمها ، وسجلت عليها نشيداً مكتوباً .

وحدث ما تملكني اليأس من حدوثه .

أتى الإله "نب رع" على هيئة ريح الشمال ، فمس جسد صغيرى ، وأنقذه من مرض الموت .

لم أدع التماسيح أن تكون ضد هيرا في الماء ، ولا دعوت الثعابين أن تكون ضده على الأرض . إنما دعوت أن تحاكمه الآلهة ـ وحدها ـ على ما فعل . تلتهمه النيران ، فلا تكون له نفس ولا روح ولا جسم ولا ظل ولا عظام ولا شعر ولا كلمات ، ولا يكون له قبر ولا خبز ولا نار ، وتتنكره ذريته ، فيصبح رأساً مقطوعة من جسمها . فإذا نزل إلى العالم السفلي ، ربط وقيد في الجحيم ، ولا يسمح لروحه بأن تخرج إلى أبد الآبدين .

رع السرمدي لم يسلم من تدبيرات مخلوقاته ، بعد أن تقدم به الزمن ، ودبت فيه الشيخوخة . أصبحت عظامه من فضة ، وأعضاؤه من ذهب ، وشعره من "لازورد" حقيقي .

لاحظ بنو الإنسان ذلك ، فدبروا له السوء . لكن نواياهم الشريرة لم تنب عن الإله .

قال للآلهة الأجداد : هل رأيتم بني الإنسان الذين خلقتهم من عيني ، كيف يأتمرون ضدي ؟. صدقوني . ما ذا أنتم صانعون بهم ؟. لم أود قتلهم قبل أن أسمع منكم ؟ ماذا ستقولونه أنتم ؟

قال الإله نون : إبني رع ، الإله الذي هو أعظم من أبيه وخالقه . ابق أنت جالساً على عرشك ، فإن الخوف منك عظيم ، وخاصة إذا صوبت عينيك نحو المتآمرين ضدك .

صوب رع السرمدي عينيه نحو المتآمرين ، ففروا إلى الصحرا ، يخشون عاقبة تدبيراتهم . وأنزع رع عينيه إلى الأرض في صورة الآلهة حاتحور ، فقتلت الفارين إلى الصحراء ، وكادت تبيدهم ، لولا عفو رع الذي حمى بني الإنسان من الهلاك ، وان رفض البقاء سيداً على مخلوقات ناكرة للجميل .

لم يسلم رع السرمدي من تدبيرات بني الإنسان ، وحالت رحمته دون أن يسلط عليهم جبروته اللانهائي .

الا بوجهى ، إنى تسامحت عن الايذاء الذى دبره هيرا لصغيرى ، وإن لم أفعل الشيء نفسه لما كان يدبره ضد جلالة الملك .

لم يستطع أى شرير - مهما بلغ لؤمه وتخابثه - أن يجتذبنى ، أو يسيطر علىّ . وعندما شهرت سلاحى فى وجه الشر ، فلأنه كان قد تحول إلى خطر ضد جلالته ، يجب مغالبته .

أبلغت جلالته - حين أذن لى بالمثول بين يديه - بمؤامرة كان قد دبرها الحاكم ضد الملك ، حشد لها الأعوان والأموال .

فلما تيقن جلالته من كل ما حدثته به ، وراجع بنفسه حيثيات أحكام القضاة ، ترك لهيرا إنهاء أيامه بيده ، وعاقبه بمحو اسمه ، والقضاء على روحه ، وأنزل عقابه بأولاده ، فأمر بضمهم إلى عمال تكسير الحجارة .

أما اعوان الحاكم ، فقد عاقبهم جلالته على تواطئهم ، وأوقع عليهم العقوبات الرادعة ، وأتلف عيونهم وآذانهم وأفواههم ، ودمر بيوتهم ، وطرد من كانوا يعولونهم الى الصحراء .

السؤال الخامس عشر

قال أوزوريس :
- من واجبى - أيها الرجل - أن ألفت نظرك إلى أن السؤال التالى يختلف تماما فى معناه عن السؤال الذى سبقه .
قال زاو مخو :
- انى أعرف الأسئلة الاثنين والأربعين كلها ، وأعددت نفسى للرد عليها .

قال أوزوريس :
- هل أهملت أدواتك الزراعية وأرضك ، وقت البذر أو رعاية النبات ؟
قال زاو مخو :
النيل العظيم يأتى من الجنوب . يمضى إلى حيث يبتلعه البحر فى الشمال . ولكنه - بأمر أوزوريس - يهب الخصب والتجدد فى أرض الوادى ، وينمو النبات فيصبح محصولاً وثماراً .

قبل أن أصبح مالكاً لأرض واسعة ، بذلت فى أرضى الصغيرة التى بدأت بها ، مالم يبذله فلاح فى أرضه . سويت ، وبذرت ، وتعهدت النبتة الصغيرة حتى صارت ثمرة ، وثماراً ، واتسعت الأرض المحدودة . أمست مزرعة كاملة . ولم أبخل بجهد ولا اشراف ، انما تعهدت زراعاتى بنفسى ، وراقبت كل الخطوات من بداياتها ، وحرصت على أدواتى الزراعية فى أيدى الفلاحين ، فلم أسمح باساءة استخدامها ، ولا استخدامها فى غير الغرض الذى خصصت له . وحرصت على ما بالمزرعة من حيوان وأشجار ومحاصيل . حتى الحظائر والمخازن كنت أفتش بنفسى عن نظافتها .

أما فى موسم الفيضان ، فقد كنت أقف بنفسى وسط العمال ، وهم يضعون السدود ، ويحفرون القنوات التى تحول بين المياه واغراق المزروعات .

وحين أساء أولادى الثلاثة أوبا وسنموت وناخت ما عهدت به إليهم من الإشراف على مزرعتى ، فانى استغنيت عن خدماتهم بلا تردد .

لم تكن بنوتهم لى سبباً فى إساءة الاشراف على المزرعة ، فظلت جيدة الأرض والمحاصيل والأدوات الزراعية ، ولم تعرف الأمراض طريقها إلى ما بها من حيوان إلا نادراً .

غاضت ـ منذ عام بعيد ـ مياه النهر ، وجف مجراه ، وصار الناس يعبرونه على أقدامهم ، وتوقفت السفن والزوارق ، فلم تستطع السير فى المياه الضحلة ، وهددت الصحراء بابتلاع أرض الوادى ، وبدا الجفاف قاسياً ، ومنذراً بالخطر ، وأعلن كل امرئ قلقه ، ونعى الناس زراعاتهم التى هلكت ، وتعالت الدعوات للآلهة ، وكثر المترددون على المعابد .

ثم حملت ريح الشرق معها غيوماً من الجراد ، أتت على كل مافى الحقول من نبات أخضر ، وجردت الأشجار من أوراقها . أصبح الناس يقتاتون الحشائش ، ويحيون على الماء . حتى الطيور لم تعد تجد ما تأكله . وعلت الابتهالات للآلهة : أيتها الآلهة المقدسة . عوضى محصولنا القادم من الدمار الذى ألحقه بنا الجراد .

وزادت الفئران فى الحقول ، والتهمت الأبقار المحاصيل ، وأكلت العصافير الحبوب ، ونفقت الماشية . ومابقى سرقه اللصوص ، فلم يبق

فيها شيء قائم .

تضاعفت المشقة دون أن يجد المرء طعامه . وعجزت السيقان عن حمل الأجسام ، ونقصت القرابين ، ولم تعد حالات الاغماء تثير الانتباه ، وصار الأطفال يصرخون بلا انقطاع ، وانطلقت أصوات التعديد من البيوت ، حتى في الأوقات التي لا تشهد رحيل عزيز .

فتح جلالته مخازن الغلال لأعوانه المقربين . وفعلت الشيء نفسه لأهل ونيس .

أحببت الناس ، فاخترت زراعة البردى لأضيف إلى حياتهم . يأكلون أسفل الساق ، ينزعون أوراقه الحرشفية ، يأكلونه نيئاً أو مشوياً أو مطبوخاً ، يصنعون منه الأثاث ، السلال والمناضد والصناديق . من سيقانه الجافة يصنعون المراكب والأحزمة التي تلتف بها الخصور ، وصنادل الكهنة ، والحبال المجدولة القوية .

ولأني كنت أتعهد أرضي ، أرعى كل ما تدره من محاصيل وغلال ، فقد امتلأت مخازني ، فلم أنظر - بقلق - إلى أيامي القادمة .

قلت لايمسخ :

- اعط للفلاحين ما يطعمهم من نبات البردى .

قال بذهول :

- ولكنهم - ياسيدى الموقر - لا يملكون المقابل .

قلت :

- سجل ما أخذوه وحاسبهم بعد رحيل الأيام الرديئة .

قسما بحياة الآلهة ، انى لم أهمل محراثي ولا أرضي في أى وقت . ولم أهمل المحاصيل التي وهبتها لى الآلهة . وعندما سرى الجفاف في النهر والحقول ، وغابت الخضرة ، بذلت عونى للناس ، بعد أن بدت كل المسالك مغلقة ، والهلاك قدرهم المحتوم .

السؤال السادس عشر

ران صمت ، فقال زاو مخو :

- انى أثق في تفهم الآلهة لما قلت ، وأن ما رويته هو الحقيقة بعينها .

قال أوزوريس :
ـ هذه كلمات تسبق أوانها . فلتنتظر حتى ترد على الأسئلة ، بالترتيب الذى وضعته الآلهة . وسترى المحكمة ان كان ما قلته فى كفة الصدق أم فى كفة الكذب .

وعلا صوت الإله :
ـ هذا هو السؤال السادس عشر : هل استسلمت لرغبة متسلطة فى أن ترى ما يجب ألا تراه عيناك ، وتسمع ما يجب ألا تسمعه أذناك ؟
قال زاو مخو :
أنا لم يدفعنى أحد للزواج من ميرية ، لما رأيتها ـ ذات صباح ـ فى سوق مدينة بوتو . وقع جمالها فى قلبى ، وأحببتها أكثر من أى شىء آخر .

كان ثغرها رقيقاً كزهرة اللوتس ، وخداها رمانتى حب ، وصدرها ناهداً مستديراً ، وقوامها نخلة ممشوقة ، وجدائلها كسواد الليل . وكانت رؤيتى لها ، حديثى معها ، والنظرات التى خصتنى بها ، وأنا وسط الناس ، خيراً لى من أشهى الطعام وألذ الشراب .

سألت عن أسرتها ، فقيل كلام طيب ، وان تحدث البعض بما يدين سلوكها ، لكننى لم آبه بما سمعت ، فقد أحببتها ، وأزمعت أن يكون اتجاهى ـ برفقتها ـ إلى المستقبل وحده .

قلت لميرية ، قبل أن يوقع الشهود الأربعة على عقد زواجنا : أتعهد بأنى إذا أهملتك ، أو اتخذت لنفسى زوجة أخرى ، أدفع لك ما يساوى ألف قطعة من الذهب .

ولم أكن فى حاجة لأن أنفذ شيئاً مما تعهدت به . ربط بيننا عقد ، طرفاه رجل حر وامرأة فاضلة . تركت تحت قدميها كل شىء ، سيدة لمنزلى ، وأختاً . أصبح قلبى ممتلئاً بحبها كحقل ممتلىء بالزهور . تزوجتها وكنت شاباً يشغل وظيفة صغيرة ، وتدرجت ، وزادت ثروتى ، وعلت مكانتى ، وأصبحت شخصاً مرموقاً . لم أحاول أن أهملها ، ولا تغاضيت عن طلباتها . اقتنيت لها الجوارى اللاتى يسهرن على رعايتها ، وينشغلن باظهار جمالها وزينتها ، وتصفيف شعرها ، وتخضيب يديها وقدميها بالحناء ، وصبغ رموشها بالكحل .

ظللت حريصا على علاقتنا الزوجية . لم أدخل منزلاً آخر . لازمتها ، ولم أهجرها - يوماً - ولا قسوت عليها ، ولا جلبت الحزن إلى قلبها ، ولا أخذت شيئاً مما تملكه . عاملتها معاملة الرجل الذى يقدر زوجته ، وقدمت لها العطور وعقاقير التجميل ، والكثير من الحلى والمجوهرات والقلائد والأساور والأقراط والخواتم والمكاحل والمراود والأمشاط والمرايا وأحمر الشفاه . وأحضرت لها كل طيب ، ولم أخف عنها شيئاً . ما أتانى إنسان بشأنها ، وتقبلت منه شيئاً ضدها ، وما أخفيت سراً عنها ، حتى ذهبت - مطلقة - إلى بيت أبيها . لم أسىء إليها قط ، ولا عاملتها معاملة السيد لجاريته . ولم أتزوج بابنتى مثلما فعل الملكان سنفرو ورمسيس الثانى ، ولا بأختى مثلما فعل أوزوريس العظيم ، والعشرات من الملوك المحترمين ، ولا تزوجت بأكثر من واحدة كما فعل السراة من أمثالى . اكتفيت بواحدة كأنى واحد من الناس العاديين . حرصت على أن أطرد بواعث الخلاف بعيداً ، فلم أسألها ، ولا أبديت ملاحظة تضايقها ، ولا نهرتها . حتى الأخطاء التى فاجأتنى بها ، تذيع خلافاتنا لأصدقائى ، تبوح لهم بأسرار عملى ، تحرض خدمى على إهمال العمل ، حتى تلك الأخطاء كنت أغض الطرف عنها ، وأبدو كأنى لم أرها .

أخلصت لها ، وتمنيت أن تخلص لى . أنجبت منها أبنائى الخمسة : نختى وحررة وأوبا وسنموت وناخت . وأوصيت لها - بعد رحيلى - بكل ما أملكه من أموال وذهب وعقارات وأراض . وتركت لها الحرية فى أن تهب الميراث فى حياتها ، أو بعد الموت ، لمن تشاء من أبنائها الخمسة .

وحين سألنى الكهنة ان كان القبر سيضم معى أحداً من أفراد أسرتى ، قلت بلا تردد : إنى أوافق على وجود زوجتى وحدها معى دون سواها .

تغاضيت عن الكثير مما فعلته ميرية ، حتى ظن الناس - وأعلنوا - انى أسير فى طاعة أنثى ، وأنها تسيطر على رأيى . لم تعد تنتظرنى عند عودتى إلى المنزل فى المساء ، ولا تشاركنى مائدة الطعام ، ولا تجلس معى ، حين أكون مع أصدقاء أو بمفردى ، وتبدى ضيقها بالكثير مما أفعله . ولاحظت انها كانت تجفل - أو تتظاهر - عندما يلامس ظهر يدى - بعفوية - ظهر يدها . وكنت أتظاهر بأنى لا أرى .

ظللت أعمل بنصائح أبى ، فأشبعت جوفها ، وسترت ظهرها ، وحاولت استمالة قلبها بعطاياى ، واسعادها ما استطعت ذلك .

لم أتهمها عن سوء ظن ، ولا كايدتها بمعاشرة ضرة لها فى بيتى ، ولا قسوت عليها ، مادامت قد اعترفت بذنبها ، وأعلنت أنها لن تعاوده ، ولا سألتها عن شىء أين موضعه ، إذا تخيرت له وضعه المناسب .

قالت لى ميرية :

ـ مدينة بوتو .

قاطعتها :

ـ هذه مدينتك .

قالت :

ـ عاد إليها منذ أيام جارنا مانيروس .

وأنا أغمض عينى لأقاوم الغضب :

ـ أخبرنى أتباعى بذلك .

قالت :

ـ كنا جارين منذ طفولتنا .

ملأ الغضب رأسى فكادت تنفجر :

ـ أعرف !

وهى تغالب ترددها :

ـ فهل تعرف أنى أحببته فى بعض فترات حياتى ؟

أهملت ما بيدى ، ونظرت إليها باهتمام .

لقد شجعت خادمى تبامون على أن يأخذ رسائلها إلى الرجل فى مدينة بوتو ، ويعود برسائل الرجل إليها . وكنت أتسلم رسائلهما ، كل إلى الآخر ، فاقرأها ، وأعرف ماذا ينتويان . حدثها عن الزواج بعد طلاقها منى ، وحدثته عن مسعاها الذى لا يكل ، حتى أطلقها .

علا همس صوتها :

ـ بعد عودته ، تبين لى أن حبى له مازال فى موضعه داخل القلب .

قلت :

ـ ماذا تعنين ؟

وهى تهز رأسها :

ـ ماقلته لك .

قذفت الفراغ بظاهر كفى :

ـ سأتظاهر انى ما رأيت ولا سمعت شيئاً . لن أدع ما حدث يخرج من فمى . ومن ناحيتك فانى سأحزن كثيراً لو أخبرت به أحداً .

ألا بوجهى ، انى لم أسترق السمع . انما روت لى ميرية ما كان أتباعى قد أبلغونى به . تمنيت أن تكون الوقائع كاذبة . لكن ميرية أعادت ما رواه الاتباع من بداياته ، من اللحظة التى عاد فيها مانيروس الى مدينة بوتو ، لينسج قصة علاقة آثمة .

قالت :

ـ أنا لن أخبر أحداً . ولكن من حقى أن أتزوج بمن أحب .

صحت :

ـ هل نسيت أنى زوجك ؟

تعثرت الكلمات فى شفتيها :

ـ أنا أحبه ولا أضمر لك الشعور نفسه .

تقلصت أصابعى على كتفيها :

ـ فلماذا تزوجتنى اذن ؟

وهى تعود الى الوراء برأسها :

ـ كنت أتصور أن حبه زال من نفسى .

اشتعل جسمى بالقهر :

ـ ولماذا الآن ؟

ـ كنت أتصور أنى نسيته ..فلما رأيته ـ بعد غياب طويل ـ أدركت أن حبه لم يغادر قلبى .

دنوت بشرر العينين من وجهها :

ـ خائنة !

وهى تدفع صدرى بيديها :
ـ أكون كذلك لو أنى لم أصارحك .
ـ أى ذنب اقترفته نحوك حتى تلجئين إلى خيانتى .
ـ أنا لم اخنك ، وان كنت اخشى عواقب المستقبل .

أضافت وهى تبتعد بعينيها :
ـ أنت منى الآن بمنزلة الأخ . لا أقدر أن أتصور نفسى فى حضنك .

قلت للكاهن :
ـ زوجتى تريد أن أطلقها .

قاوم دهشته :
ـ أنتما زوجان صالحان .

فى أسى حقيقى :
ـ هذا ما ظننته .

سألنى :
ـ هل ضايقتها أو أسأت اليها ؟

قلت :
ـ طلبت الطلاق بما يدينها .
رويت له ما حدث .

كنت أتوقع أنه سينصت إلى ما أقوله . يتفهم المأزق الذى أعانيه . ينصح بما يجب أن أفعله ، ولكنه استقبل كلماتى ببرود ، كأنه يعرف القصة من قبل روايتى لها .

قال فى صوت هادىء :
ـ هذه سيدة فاضلة .

قلت متعجبا :
ـ لا أتصور ياسيدى الكاهن أنك تصفها بذلك .
ـ كانت تستطيع خيانتك ، لكنها فضلت الطلاق بدلًا من الخيانة . ان المرأة الخائنة تعاقب بالموت .

كنت أستطيع أن أحرق زوجتى حية ، وألقى برمادها فى مياه النيل »

أجز عنقها بسكين ، وألقم جسمها أفواه الكلاب ، أكشف جريمتها وما تفعل في غيبتي . فيأمر القاضي باعدامها . لكنني اكتفيت بتوجيه النصح إليها . تحذيرها ، تخويفها من المصير الذى يترصد لها في نهاية الطريق .

ولما رأيت فى المنام ناراً هائلة تحرق فراشي ، سألت الكاهن عن تفسير ذلك ..

قال بسرعة ، كأنه قد رد بالكلمات نفسها فى أسئلة سابقة :
ـ تأويل ذلك ـ يازاو مخو ـ أنك ستلجأ إلى تطليق زوجتك .

قلت لها :
ـ هجرتك كزوجة لى . وانني أفارقك وليس لي مطلب على الاطلاق . كما أبلغك انه يحل لك أن تتخذى لنفسك زوجاً آخر متى شئت .

جاءت ميرية الى بيتى كامرأة حرة . قدرتها كأنها قطعة منى . لم أقلل من شأنها ولا أهملتها ، ولم أهجرها إلا حين كاشفتني بالخيانة مع الرجل الغريب . حرضها مانيروس على ما فعلت ، فلوث ردائى ، وحقر من شأنى ، وجعلنى هزوءاً فى عين الملك ، وفى أعين أصدقائى ، وأهالى الاقليم .

لم أعامل أبنائى بالجرم الشنيع الذى أقدمت عليه أمهم . منحتهم كل ما استطعت من بر وعطف . انهم أبنائى . يخلفوننى فى حمل شعلة روحى المقدسة ، روح الآباء والأجداد التى حملتها قبلهم . لم ينصرف قلبى عن محبتهم ، رغم التلوث الذى أحدثته أمهم ـ وصديقها ـ فى ردائى .

السؤال السابع عشر

قال القاضى آكل الظل :
ـ أين ذهب أخوة نختى الثلاثة ، بعد أن هجروا بيتك ؟

قال زاو مخو :
ـ لا أعرف ! أعلنوا عصيانهم ، ومضوا .

قال آكل الظل :
ـ هل يضع الإنسان بذوره ، ثم يهمل رعايتها ؟

قال أوزوريس :

ـ هذه ملاحظة ـ أيها الرجل ـ وليست سؤالاً . نحن مقيدون بالأسئلة الاثنين والأربعين .

استطرد فى صوته الربانى :

ـ هل بدا خيالك على الجدار هائلا ، فأخذك الغرور ، وتصورت نفسك هائلاً وقوياً مثل خيالك ؟

قال زاو مخو :

أنظروا . حين أتاحت لى الآلهة أن أقف فى حضرة الملك مرسو رع ، فانى أقسمت لجلالته أن يدوم ولائى مدى الحياة . وقد بررت بقسمى : أفعل كل ما يريده الملك ، لا أقصر فى خدمته .

الملك ـ كما تعلم المحكمة الموقرة ـ ليس من بنى الإنسان . آباؤه ليسوا بشراً ، وأمهاته لسن من الناس العاديين .

الناس لا يشربون مياه النهر إلا بإذن منه ، لا يتنفسون الهواء إلا إذا وافق على ذلك ، ولا تشرق عليهم شمس رع كل صباح ، إلا إذا قضت مشيئته . وإذا فعل المرء ما يحبه الملك ، فان جلالته يأمر بتنفيذ رغباته المهمة ، فيفيد منها ، ويفيد منها أبناؤه وأحفاده إلى أبد الآبدين .

أليس هو واهب الخصب ، وحافظ كل شيء ؟ وهو الذى يجعل البلاد مخضرة مورقة أكثر مما يفعل النيل فى فيضانه العظيم ؟.

أليس هو الراعى الذى يحنو على مواشيه ، دائما وإلى الأبد . تتجه قلوبهم إليه ، فهو المحسن فى جميع الأزمان ، ويعيش أبناء البلاد لأنهم يرونه ؟

اقتربت من الملك . عملت فى خدمته ، حرصت على مودته واعجابه وكلمات ثنائه . وأتاح لى ذلك كله مكانة أرفع بكثير من الآخرين . حتى هؤلاء الذين يعملون فى وظائف ملكية كرجال البلاط وموظفى المساحة ووكلاء صوامع الغلال ورؤساء الفلاحين وقادة الجنود . انهم يتقاضون رواتب مقابلاً لما يبذلونه . أما أنا ، فكان عملى لخدمة الملك ، تقديراً لمكانته الرفيعة ، حرصاً على أن أخضع نفسى لارادته الالهية ، وان أتاح لى سجودى تحت قدميه ، أن أحظى بالعفو من المشاركة فى أعمال جلالته الدينية والدنيوية ، تلك التى يستدعى لها الفلاحون فى مواسم التوقف عن

الزراعة . لم يكن يعفى من التكليف سوى موظفى الملك والكهنة والقلة من سراة القرى . وزودنى اقترابى من جلالته بقوة لم توفرها لى أموالى ولا كل ما أمتلكه . صار الناس فى قريتى ، وفى الاقليم كله ، يعملون حساباً لأفعالى ، ينصتون لأقوالى . واعتبرت فى كل القرى رجلاً نافذ الكلمة .

منذ أبلغت جلالته بتآمر هيرا ، حاكم الاقليم ، رفعنى على سواى من الوجهاء والسراة ، مكافأة لى عما فعلت . وأقطعنى أرضاً يملكها فى مدينة مجاورة . ووافق على ما كنت أتوسل إليه أن يلبيه .

لم ينل أحد من عبيد جلالته ، مثلما نلت من عطفه ورعايته . ولم يعاقبنى لخطأ ربما أكون قد ارتكبته . عطف على وأكرمنى ، وأقطعنى الأرض ، وقلدنى الأوسمة . ظللت هكذا ، حتى ارتحل جلالته إلى مملكة السماء ، وعاملنى الملك الجديد بجفاء لا أستحقه ، واعتبر كلماتى كاذبة ، ونياتى شريرة ، وأفعالى قبيحة .

لقد أصبحت عظيماً بعد أن كنت صغير القدر . وصرت صاحب ثروة ، بعد أن كنت محتاجاً . فلم أنس أنى كنت ضئيلاً فى الزمن الماضى ، ولا تفاخرت بثرائى الذى هو منحة لى من الآلهة .

ومع أن أبى طالما حذرنى من مخالطة الاتباع والخدم والضعفاء ، فلا أدعهم يقتربون منى ، أو يلفظون أمامى بما لا ينبغى أن أسمعه . أحرص على الساتر بينى وبينهم ، فلا تزول الفروق ، ولا تنمحى الكلفة . يعرفون قدرهم ، ويلزمون أماكنهم . مع ذلك ، فانى كنت أقترب منهم ما وسعنى ، لا أضيق بهم ولا بأحاديثهم ولا برائحتهم التى تذكرنى بزيارتى لحظائر مزرعتى . وكنت أحفظ أسماءهم وأناديهم بها ، بما يرسم الفرحة على الوجوه ، ويلهج الألسنة بالشكر والثناء .

كنت أمتلك مجموعة ممتازة من الصنادل المصنوعة من المعدن والجلد والقش ، لكننى كنت أتعمد السير ـ فى الأغلب ـ حافى القدمين .

وحين واتتنى المقدرة ، لم أحاول أن أعلو بكتفى على أهلى وأصدقائى ، ولا حاولت التفاخر بين سراة القرية أو فقرائها ، بما وصلت إليه فى قصر الملك ، ولا أعلنت ـ وأضمرت ـ الترفع . ولكن احترامى صار حقاً فى نفوس أهل ونيس والوافدين إليها . مكانة العظيم لا تتحقق بالحظ وحده ،

إنما تأتى وتتسع باتساع خطوات المرء فى طريق رضاء الآلهة وابنها المبجل .

لم يداخلنى الغرور بسبب ما حصلت عليه من مكانة ، ولا تعاليت على الناس ، ولا انتفخت أوداجي ، ولا حقرت أحداً ، فلا أدرى ان كان فى نفسه أفضل منى . وكنت أجالس الضعفاء كما أجالس السراة ، وأشارك فى جنازات الموتى ، لا أفرق بين غنى وفقير . أركب السفن فى رحلة الانتقال من الشاطىء الغربى إلى الشاطىء الشرقى . أحرص على تعزية أهل الميت ومواساتهم ، وربما قدمت أوانى الطعام إذا كان الميت من الملاصقين لى .

قبل أن تصارحنى زوجتى بمانيروس ، صديق طفولتها الذى تريد هجر بيتى من أجله ، كنت قد أطلقت أتباعى ، يجمعون المعلومات عنه .

عرفت أنه لم يكن فى الأصل فلاحاً . كان نعالاً ، يصنع النعال من الحلفاء أو البردى أو سعف النخيل أو الدوم أو القش . حرم الملك ـ تحريماً تاماً ـ على أهل الصناعة ، تغيير حرفتهم . يتفرغ الصانع للمهنة التى ورثها عن أبيه ، فيتقنها . الأعراف حائل أمام المرء إذا أراد الخروج عن نطاق مهنة آبائه . لم تكن مهن الصناع وضيعة ، وربما كانت أفضل من السخرة ، أو العمل فى حقول السراة . لكن الأعراف تقضى بألا يفارق أحد مهنته . حتى الصلاة التى طالما يرددها الآباء تقول : "أى امرىء يود أن يرى ابنه قد خلفه فى الوظيفة التى كان هو يشغلها" .

ذهبت ـ دون أن يعرف الناس ـ إلى مدينة بوتو التى يقيم بها . انها نفس المدينة التى التقيت بميرية فى سوقها الكبير .

عرفت مهنته السابقة من طريقة جلسته . الكتبة يجعلون الساقين متقاطعتين عند الجلوس ، ويضعون القدمين تحت الركبتين ، والصناع يجلسون راكعين ، ويمدون الساقين إلى الخلف . أما الفلاحون فهم ـ مثل غالبية الناس . يفترشون الأرض ، يخفضون إحدى الركبتين ويرفعون الأخرى . ولم تكن جلسة الفلاحين جلسته ، إنما كان يجلس بطريقة الصناع .

فلما دعاه اتباعى إلى بيتى ، وقف أمامى ، فلم ينحن ، ولا لمست يداه ركبتيه .

وحين بذلت من تسامحى ، وأطعمته من مائدتى ، فإنه لم يكن يدرك الفارق بينى وبينه . جلس فى حضرتى ، فلم يكتف بما وهبته له ، ولا نظر إلى ما يوضع أمامه ، ولا خفض من وجهه . إنما أكل وحدق وتحدث ، كأنه ليس ضيفاً ، وكأن البيت بيته .

قلت وأنا أدفع إليه بكأس من الجعة :

ـ هل كنت صديق طفولة لزوجتى ؟

اختلجت عيناه بمفاجأة السؤال .

قلت :

ـ صارحتنى ميرية بكل شىء .

ظل على صمته ، فأضفت :

ـ ميرية الآن لها زوج وأبناء .

قال بصوت متعثر النبرة :

ـ كما قلت ياأخى المبجل ، زوجتكم صديقة طفولة .

قلت :

ـ فلما عدت من الغربة ، أردت أن تعيد الصداقة القديمة .

دخل فى الصمت ثانية ، فقلت :

ـ قرأت رسائلك اليها ، ورسائلها إليك .

نطقت عيناه بالدهشة :

ـ أية رسائل ؟

ـ تلك التى اتفق فيها على الزواج سيدة متزوجة ورجل غريب .

مضت أزمان قبل أن يستعيد نفسه . قال فى صوت يخالطه الارتباك :

ـ ثق ياأخى أن زوجتكم سيدة فاضلة . صارحتنى بتفرقتكم فى المعاملة بين الأبناء ، والحرص على افتعال العداوات مع الجيران ، والنيل حتى من الأصدقاء ، واستغلال مكانتكم لدى جلالته بما يؤذى الآخرين . استمعت اليها ولم أكن أملك أبعد من ذلك ، ثم كان قرارها بطلب الطلاق .

صرخت :

ـ لتتزوج من نعال ؟!

- ارادتها الخالصة اتخذت قراراً بطلب الطلاق .

وأنا أغالب ارتعاشة جسمى :

- وبارادتكما اتخذتما قرار الزواج ؟!

فى صوته المرتبك :

- إذا طلقت المرأة الصغيرة السن ، فمن الطبيعى أنها تقبل زوجاً آخر .

- تتفقان على الزواج قبل أن أطلقها ؟

- أكدت لى أن قرارها بلا عودة .

قذفته بأطباق المائدة ، وأشرت إلى الباب . بدت الكلمات أضعف من أن تواجه ذلك الذى يغرى زوجة وأما لأولاد ، على أن تهجر بيتها ، لتقترن به .

عرفت أنه كان دائم التشاجر مع أهالى القرى . وكان يخطف طعامهم وملابسهم ومواشيهم . ووجد تحوتى ، قائد الشرطة ، فى بيته عنزة صرف أصحابها يومين فى البحث عنها .

زاد ألمى حين علمت أن مانيروس دعا الفلاحين إلى انتزاع حقوقهم - كما سماها - من أيدى ملاك الأراضى . ودعاهم إلى تقلد الاسلحة ، واصطناع السهام والسكاكين لكى يحصلوا على طعامهم بدمائهم .

كان الرجل يتكلم أكثر مما يجب . وكان يتجه بكلماته إلى من هم فى غير استعداد لسماعها وتقبلها .

لم تكن تهمة عادية فأقضى فيها . أبلغت رجال الملك . اقتادوه من كوخه ، بالأرض التى لم يكن يملكها فى ضفة النهر . كانت أوامر جلالته - حين علم بما يقوله الرجل - حاسمة : فليقض على هذا الرجل . فليقتل ، ويمح اسمه وذكراه وهؤلاء الذين يصيخون السمع إليه .

اجتثت شجرة الرجل ، فتيقنت من صواب تقديرى لخطورته .

رفض الكاهن استقبال تابوته ، وقال :

- الآلهة ترفض استقبال الجثث المكفنة بغير الكتان .

وأمرت أتباعى ، فلفوا جسمه بكفن من الكتان الجميل . وكان أهله أفقر من أن يحنطوا جثته ، فاكتفوا بملامستها للرمال الساخنة ، حيث لا طعام

ولا شراب ولا حوائج له فى العالم السفلى . يأكل من عذريته ، ويشرب بوله .

أمرت أتباعي ، فقدموا له من الأطعمة والأشربة بما لا يدفعه إلى أكل الجوع ، أو شرب العطش ، وما يدخل على نفسه البهجة والسرور .

إن المساواة غير متاحة ، حتى فى العالم السفلى ، فالأماكن الأفضل هى للارواح المختارة التى أحسنت تنفيذ ما تريده الآلهة ، والمكانة الأفضل فى الحياة هى للمقربين من الملك ، وذوى النباهة والثراء والشجاعة . وإذا كان الإنسان يأمل فى أن تمتد حياته فى عالم الغرب ، فانه يعلم أن النعيم الذى يلقاه ، يساوى مرتبته فى الحياة الدنيا .

السؤال الثامن عشر

قال أوزوريس :

ـ أفضل لو أنك اكتفيت بسرد الوقائع .

قال زاو مخو فى خوفه :

ـ هل أخطأت ؟

قال أوزوريس مهوناً :

ـ لم أعن ذلك . لكن الاستطرادات الكثيرة ربما تجلب الخطأ .

قال زاو مخو :

ـ ان كل ما أقوله يصدر عن قلبى .

قال أوزوريس :

ـ لا تسرف على نفسك ، انما هى ملاحظة أبديتها .

استطرد بالسؤال الذى حفظته الذاكرة :

ـ هل تعلقت بالحياة الدنيا . وهل شدتها اليك خيوط من ذهب ؟

قال زاو مخو :

قسما بحياتى الخالدة ، انى لم أرتكب السرقة ولا القتل ، ولا أكلت مال اليتيم أو القاصر ، ولا كذبت أو خدعت أو شهدت زوراً ، ولا زنيت أو اعتديت على عرض إنسان . ولم أنقل الحدود ، ولا اعتديت على أوقاف

المعابد ، ولا انتهكت حرمات الموتى ، ولا تحدثت عن الفرعون بغير الخير ، ولا سطوت على ممتلكات أحد . يشكونى الى الآلهة ، فتنزل اللعنة على جسمى . يتلقفنى غضب آمون الملتهب فى يوم غضبه ، ويلفظ تاج الأفعى الخاص به ناراً على رأسى ، فتفنى أطرافى ، أو أغرق فى البحر ، فلا يبقى ما يدل علىّ .

لم آكل خبزاً عندما كان هناك آخرون يعانون . أطعمت الجوعى ، وسقيت الظمأى ، وكسوت العراة ، وأغنيت المحتاجين ، ووهبت المراكب لمن تحطمت مراكبهم ، ورفعت الماء إلى الأرض العالية .

أحببت آلهة مسقط رأسى . اختلطت بأهل المعبد ، موظفيه وشرطته وصناعه وفلاحيه وكهنته بأرديتهم الكتانية المزهرة ، كأنها ألوان الأثير المحيط بالكون من حولنا . عرفتهم بأسمائهم وناديتهم بها ، واعتبرت نفسى واحداً منهم ، واعتبرونى كذلك . ألبى كل ما يطلبونه ، وأطيع أوامرهم ، وأبذل قوتى ونفوذى لهم ، وأشارك الكهنة فى بعض الواجبات : رش تمثال الآلهة بالماء المقدس ، تضميخه بالعطور والبخور ، العناية بثيابه وزينته ، تلاوة الأدعية والصلوات من الكتب المقدسة . أصبحت على معرفة بطقوس الدين ، وطرق السحر ، وأداء القرابين ، وتنظيم المواكب فى معابد الآلهة ، وحفظت الكثير من الأدعية والأناشيد .

خصصت للمعبد – زيادة على الوقف السنوى – جراية قدرها خمسمائة رغيف ، ومائة جرة من الجعة ، وثلاثين حزمة من الكرات ، وأعداداً من الطير والماشية . وغرست فى حديقته اشجار السنط والنخيل ، وزينت أحواضها بالبردى واللوتس ، وأوقفت مزرعة بمواشيها وحدائقها ، حتى يقدم الكهنة من ريعها ما تحتاجه من القرابين والبخور .

كنت أقدم للآلهة العجول المغر وحدها . أفحصها بنفسى جيداً . اذا وجدت فى العجل شعرة واحدة سوداء أو بيضاء ، اعتبرته غير صالح للقربان . من غير المقبول أن أقدم للآلهة ما لا يحبونه من القرابين .

زادت ثروة المعبد بما وهبته له ، وأوقفت عليه . يدفعنى إلى ذلك تطلعى الذى لا ينتهى لدخول أفق السماء . أصبح راهباً فى معبد الآلهة . أخلع ثيابى ، وأستحم فى البحيرة المقدسة ، وأحلق شعرى ، وأعطر جسمى ، ثم أرتدى ثوب الكهنة .

وكنت أعرف أن مراسم الكهنة والتعاويذ والدعوات التى ترفع أثناء الجنازة ، لها تأثيرها فى عالم الغرب ، فحرصت على سماعها ، وحفظها ، وترديدها فى صلوات الكهنة الموقرين ، أو حين أخلو إلى نفسى .

لم أفعل مثلما فعل غيرى ، فأترك مابعد الموت ، لما بعد الموت فعلاً .

وحتى لا يعلق بى من الدنيا شىء ، فقد ورثت لأكبر أبنائى نختى سيادة قريتى . ورثته كذلك مالى وعبيدى وقطعانى وثمارى وحدائقى . ساعدنى على اتخاذ قرارى ، أن أخوته هجروا بيتى ، فلم أعرف الأرض التى استقروا فيها .

السؤال التاسع عشر

قال القاضى أكل العظام :

ـ انى أشم فى هذا الكلام رائحة الأوراق التى تباع فى الطرقات .

قال زاو مخو :

ـ لأنى قرأت كثيرا قبل أن أمثل أمام محكمة الآلهة ، فلعلى أكون قد تأثرت بها .

وعلا صوته فى تأكيد :

ـ لكن ما أقوله هو الصدق الذى يجب أن أرويه للآلهة .

قال أوزوريس :

ـ هذا هو السؤال التاسع عشر : هل شغلت بأمور الدنيا ، فعميت عيناك عن أمور الآخرة ؟

قال زاو مخو :

أنا واحد من الديدان التى خلقتها عين الإله الواحد ، الوحيد ، المهاب بلا حدود ، القادر العظيم ، الجميل المتلألىء ، المتربع على عرش السماء ، المشرق فوق كل أرض ، آمون رع ، أول الملوك وإله البدء . القوة الكامنة فى قرص الشمس ، الحرارة التى تشع منه . يحكم الأرض باصبعه . يقود من لا يوجهه أحد ، ويشرف على كل الآلهة ، ولا يشرف عليه إله ما . سيد الآلهة أجمعين . له ملك البلاد والحقول والشواطىء والأراضى . يتحدث الى القلب . يعين العقاب للأشرار ، ويهب القرب لمن

أحسنوا الفعل . صنع الناس ، وخلق الحيوان والأعشاب ، وأنشأ شجرة الحياة ، وفرق بين البشر حسب ألوانهم . الراعى الصالح الذى يبحث عن الأفضل لقطيعه ، وينبت الحشائش لقطعانه ، وشجر الفاكهة للناس ، ويخلق ما تعيش منه الأسماك فى النهر ، والطيور فى السماء ، ويهب نسمة الحياة لمن لم يخرج بعد من البيضة ، ويطعم الذى لم يولد ، ويقسم الأعوام الى فصول ، والفصول إلى أشهر ، والأشهر إلى أيام ، وينتج الحرارة عندما يريد ، والبرودة عندما يشاء ، ويعطى الإنسان الحياة ، وكل ماهو طيب . يتنبأ للآلهة وللبشر بما سيحدث لهم . يشيد المدن ، وينشىء المديريات ، ويضع الآلهة فى معابدها ، ويسمح للقرابين التى تقدم لها أن تتكاثر ، ويزود مقاصيرها بما تحتاجه ، ويخلق النباتات ، ويسوس العالم ، ويتحكم فى مقاديره . يعبر السماء بسلام ، بسفينة المساء ، وسفينة الصباح . جماله على كل الأراضى ، والناس لا ترى عن غير طريقه . انهم يستيقظون حين يشرق ضياؤه ، فترتفع أذرعتهم ترحيباً به . يخرج الأبقار مبكراً ، ويقود الجائع الى المرعى . وهو الشراع الذى يقاوم الريح والأنواء ، والربان الذى يعرف جيداً أين توجد اليابسة . النجوم التى لا تستريح تغنى له . تمتدحه عندما يشرق فى الصباح ، وتغرب فى أفق مانو ، تحية له عند اشراقه ، وعند سفره فى رحلة الغرب اليومية . يشرق فى أفق السماء ، ليعطى الحياة كل ما صنع ، لكل البشر ، ولكل الحيوان والزواحف والطير والأسماك التى تحيا فى النهر . يعرف الأسرار ، ويتفحص الحجج ، ويجعل العمل الشرير ينهض ضد فاعله ، ويحاكم كل الناس ، ويتقبل من يتجنب الشر ، ويعاقب المخطىء ، ويقضى على الجريمة أينما كانت . الإله العظيم المحبوب الرحيم . أقدم المديح حين أشهد جماله ، وأنشد له حين يغرب . أدعوه فيستمع إلى ، يصغى إلى توسلاتى ودعواتى واستغاثاتى . يستجيب إلى صوتى عندما أردد اسمه .

كنت أحرص على طاعة والدى ، وسماع أوامرهما ، حتى لا يرفعا أيديهما إلى السماء ، فتستجيب الآلهة لدعائهما علىّ .

قال لى أبى : من تغلب سيئاته حسناته ، فان الملتهمة تنهشه وتمزقه ، تفنى روحه وجسمه ، فلا يحيا بعد ذلك أبداً . لا تفيده القرابين ولا الأوشابتى ولا دعوات الكهان والبررة من أقاربه ومعارفه .

أما من ترجح حسناته ، فإن محكمة العالم السفلى تتقبله ، ويهبه

أوزوريس نظرات الاشفاق . ويأمر ، فتصعد روحه إلى السماء ، مع الأجلاء الممجدين .

لم أحتقر الآلهة ، ولا تقولت السوء على الملك . الآلهة هى التى صنعت حياتى . هى التى ولدتنى ، وان خرجت من رحم أمى .

أحببت الآلهة والبشر والحيوان والنبات وظواهر الحياة .

لم أحزن حتى للدمار الذى ربما احدثه الفيضان فى حقولى أو أرضى ، وإن تمنيت أن أبنى بيتاً يبعد عن النهر ، مثل الأهرامات ، فلا يتأثر بالفيضان ، ولا تسرب المياه .

رفضت أن أعبد سبك . وجدت فى عبادة رع ما يعصمنى من عبادة إله آخر . لسبك ، ذلك التمساح الإله ، احترامى وتوقيرى ، ولكن من الصعب أن أقدم له القرابين .

كنت أشترى فى أعياد الآلهة ، تمائم رفيعة من المعدن والخزف .

خلق رع السموات والأرض طبقاً لما يريده البشر والحيوان والطير والنبات . ولكنه فرض العقاب أيضاً .

كنت أعد نفسى ـ وأنا على قيد الحياة ـ للمحاكمة . أمثل أمام الآلهة الأمجاد . لأدافع عما قد يدسه لى الأشرار من اتهامات ، وأدافع عن براءة نفسى . وكنت حريصاً أن تظل صفحتى بيضاء ، فلا أفعل ما يتملكنى الارتباك حين أرويه .

لم أكن أرى "كا" بجوارى . لكننى كنت أعلم بمصاحبته لى منذ أشرق على وجهى نور رع ، ورافقنى فى كل مراحل حياتى ، حتى انتقل قبلى إلى العالم السفلى ، ليساعدنى فيما أنا ذاهب إليه . وكنت أحرص ألا أفعل ما يضايق "كا" أو يغضبه . هو ملاك وليس إلها . ولكن كيف أتوق لمساعدته ان فعلت الشر ؟!

لم يشغلنى أن يكون قبرى فى الأبهة نفسها التى لقبر الفرعون العظيم . لكننى أمرت بأن تشتمل على المهم من الطعام والشراب والملابس والدهان والروائح العطرية والبخور ، فأقوى ـ فى العالم السفلى ـ على مقاومة الجوع والعطش والبرد ، وأتمكن من فك لفائفى ، والنهوض ـ والقدوم ـ فى

رفقة "كا" الى مجلسكم الموقر . أتلقى أسئلتكم ، وأجيب عليها بالصدق ، الذى تفطنون - حالاً - إن شابته شائبة .

وعندما شعرت بدنو الأجل ، التمست من جلالة الملك أن يهبنى تابوتاً وملابس وعطوراً . قدم إلى اعوانه بتابوت من الأبنوس ، وعطور مما يقتصر على الأعياد ، وزيت وملابس من كتان الجنوب الجميل . حملوها لأجل رحلتى المرتقبة ، من البيت الأبيض التابع للبلاط .

لم أكن فقيراً ، بحيث أحتاج إلى التابوت الذى يهبنى إياه جلالته ، فيقلنى ، حين أعبر إلى دنيا الغرب ، ولكنى حرصت على أن أفيد من العطايا المقدسة لجلالته ، الأشياء الجميلة التى يهبها ، ويحتفظ بها لعبيده ، ولمن يخدمونه .

كان أغلى أمنياتى أن امنح قبراً بالقرب من القبر الملكى . ولأن قبر الملك كان بعيداً ، فى العاصمة ، فقد وجدت فى التابوت الذى وهبه لى جلالته ما أتفاخر به على عبيد ابن الآلهة .

تركت وصايا ، دونتها بعناية ، وهبات أوقف دخلها كله لتموين قبرى ، وتقديم القرابين من البخور والدهان والطعام والشراب والملابس ، بما يجعل بيتى الأبدى حافلاً - على الدوام - بذلك كله .

تعمدت أن تنقش وثيقة الضامنة للأوقاف على جدار مزار القبر نفسه ، حتى لا يخطىء فهمى أحد ، أو يظن أنه نسى .

وأوقفت قطعة من الأرض على ضمان إمدادى بالقرابين الجنازية فى بيتى الأخير ، على أن يحصل على جزء من الدخل خدم الكا . عليهم مسئولية صيانة المقبرة ، واحضار الماء ، واجراء طقوس تقديم قرابين الخبز ، وسكب الماء أمام تمثال الميت . وأذنت بأن ينقلوا واجباتهم وحقوقهم إلى أعقابهم من بعد .

السؤال العشرون

قال أوزوريس :

- "هأنتذا" يازاو مخو تعود إلى الكلمات المطلقة ، فلا تروى واقعة محددة من تلك التى تنتظر المحكمة تفسيراً لها .

قال زاو مخو :
ـ ربما تذهب وقفتى أمام محكمة الآلهة بما كنت أتذكره . لكن ما أقوله هو الصدق وحده .

قال أوزوريس :
ـ كن هادئاً . وحاول أن تروى الوقائع كما حدثت ، فلا إضافة ولا حذف .

استطرد بصوت مترفق :
ـ هذا هو السؤال العشرون : هل توخيت العدل والأمانة فى معاملاتك بالأسواق ؟

قال زاو مخو :
انظروا . لقد اقتصرت الأعمال التجارية الكبيرة على الملوك وحدهم ، لا يمارسها سواهم ، ولا يفكر حتى الوزراء أو رجال البلاط فى الاشتغال بها . لكن جلالته أذن لى ، فسارت قوافلى إلى السودان والنوبة ، وسارت سفنى إلى بلاد الأرز . وجنيت من ذلك أرباحاً هائلة .

لم أقدم بضاعة فاسدة ولا مرتفعة الثمن ، فعادت قوافلى ومراكبى بما يفوق ـ بأضعاف ـ قيمة بضائعى .

قيل انى كنت أذبح الأوز ، وأقدمها للآلهة على أنها ثيران .

ولم يكن ذلك صحيحاً .

الوقف الذى نذرته للمعبد كفل له ، ولكهنته الموقرين ، كل ما يحتاجون إليه من بخور وأطعمة وشراب وكساء . يحفظون القرابين التى يقدمها أبناء القرية لأيام قادمة ، وربما فسدت القرابين دون أن يأكلها أحد .

وقيل انى كنت أشترى محاصيل الفلاحين بغير أثمانها الحقيقية . ينتشر أتباعى ـ عقب الحصاد مباشرة ـ يشترون فائض المحاصيل ، يختزنونها فى الأجران .

ولم يكن ذلك صحيحاً .

اعتدت سماع دعوات الناس ، تصل الى فى مجلسى داخل البيت . يقدرون انى اشتريت الفائض من محاصيلهم ، فلم يتهدده العطب .

يقولون : هاهو ذا السيد الموقر الذى أتاح لنا الاستفادة من زراعاتنا بعد أن أوشكت على التلف !

وحين غطى النيل كل الأرض بخيراته ، انحنت سنابل القمح تحت ثقل ما تحمل . وامتلأت ـ بعد قليل ـ مخازن الغلال .

كان الفلاحون يحصدون القمح ـ دون ارغام ـ ويربطونه حزماً ، تحملها الحمير إلى مخازنى .

امتلأت المخازن بالقمح ، فهى لا تقبل المزيد . ناءت السفن بما تحمل حتى تساقط القمح من جانبيها .

وعندما كان البحارة ينقلون محاصيلى إلى الجنوب ، فانى كنت أطالبهم أن يقدروا احتياجات المركب من الرياح الشمالية فى سفره إلى الجنوب ، يدبرون للرياح إذا اقبلت مريسى .

وكان الفلاحون يجمعون البردى من المستنقعات ، يقتلعونه ، فيحتفظ بطول الساق . الجزء الأعلى هو الذى أفيد منه بالبيع ، وأترك لهم جزءه الأسفل ، يأكلونه أو يبيعونه .

ما آلمنى ، ذلك الغريب الذى زرع ـ بعد انحسار الفيضان ـ كل الأرض التى انحسرت عنها المياه بالبصل والكرات والثوم والخيار والقثاء ، وأقام لنفسه فوقها عريشة من البوص .

كانت وسيلته فى الانتقال بين البرين الشرقى والغربى ، زورق صغير من نبات البردى . لا يسع إلا شخصاً واحداً ، يهتز لأقل حركة ، يضطرب ، وربما انقلب براكبه ، لاصطدامه بأى شىء . حتى لو كانت حزمة قش طافية ، أو إذا زاد حمله بمقدار ضئيل ، أو جدف راكبه بطريقة خاطئة .

لم أحاول أذيته فى القارب ، ولا أمرت اتباعى بذلك . نبات البردى الذى صنع منه قاربه ، كان يكفل له النجاة من أفواه التماسيح . ركبت الآلهة ايزيس قارباً من البردى ، وبحثت فى كل مياه تجرى ، عن أشلاء اخيها وزوجها الأعظم أوزوريس .

أمرت اتباعى ، فأتوا به :

ـ من أنت ؟

قال :
ـ بسادة .

قلت وأنا أتفحص وجهه :
ـ لم أرك من قبل .

وهو يخفض رأسه :
ـ أتباعكم ـ أيها السيد المبجل ـ يعرفونني جيداً .

قلت :
ـ أنت تقيم فى أرضى .

فى صوت يخالطه الملق :
ـ كلنا نقيم فى ظل رعايتك .

دفعته بأصابعى :
ـ أكره سم الثعابين . غادر هذه الأرض .

قال بصوته المتملق :
ـ أين أذهب وأنا لا أعرف أرضاً سواها ؟

قلت بحسم :
ـ هذه مشكلتك .

قال :
ـ أيها السيد الموقر . لقد وعيت فلم أعرف غير هذا المكان . وقد دفنت أبوى فى الضفة الغربية ، المقابلة .

لو أنه عرض أن يظل فى الأرض ، أجيراً مع الفلاحين الذين تشلمهم رعايتى ، فانى كنت سأوافق على بقائه فى الأرض ، لا يغادرها . لكنه أصر على أن يعتبر ذلك الجزء من أرضى أرضه .

وأمرت أتباعى ، فألقوا به داخل الصحراء . لم يضربوه ولا نالوه بأذى ، وان هددوه بذلك .

أذنت لكل الناس أن يأخذوا من مخازنى ما يحتاجونه من غلال . كل

بالقدر الذى يقدم ما يقابله . من لا يوجد معه المقابل ، أعطيه ما يحفظ عليه حياته .

استوردت بضائع البلاد الشرقية :
إنى أقدس سنبلة القمح . الإلهة الموقرة إيزيس هى التى اكتشفتها . أجل القمح . أضعه فى مكانه عليا . فأقسم به مثلما أقسم بالآلهة والمقدسات . أتجنب إلقاء بقاياه . وأحذر ، فلا أطؤه بقدمى ، ولا أدع الآخرين يفعلون ذلك . البخور والأخشاب والأسلحة والأوانى الفينيقية المزخرفة والمصنوعات البرونزية المنقوشة من بلاد الاغريق .

وحين قاد نختى جنوده فى حملة الى بلاد البخور ، عادت القافلة محملة بالعطور والبخور والجلودوسن الفيل وخشب الأبنوس وريش النعام والنسيج والذهب والأحجار الكريمة وخشب الأرز لصنع الزوارق المقدسة ومراكب الشمس والتوابيت والأثاث الجنازى .

وضع نختى نصيبه تحت قدمى ، فعرضته فى الأسواق . لم أقايض بارداتى ، ولا أجبرت أحداً على الشراء أو المقايضة .

ساعدت الفلاحين على إقامة صناعات النسيج والورق والسلال والحصير والحبال والشباك والغرابيل والنعال والفراجين وجعب البذور والمراوح ومساند الجرار والحوايا والباقات والأكاليل الجنازية والخبز والجعة والنبيذ والفاكهة المجففة والزيوت والصباغة والدباغة .

لم أطفف الموازين والمكاييل ، ولا زورت الأختام ، ولا أبرزت عقوداً مغشوشة ، ولا أخسرت مكيال الحبوب ، ولا أثقلت وزن الموازين ، ولا أنقصت المقياس ، ولا استوليت على الماشية المخصصة للمعبد .

وعند شراء بضاعة ، كنت أترك البائع يحدد مقابل ما يبيعه ، لا أساومه . وربما أضفت إليه بعض السلع إذا أحسست أنه قد راعى مكانتى كرجل ذى أهمية .

الناس ـ كما أعرف ـ لا يأكلون الذهب والفضة والمعادن الكريمة ، وانما يأكلون الطعام .

الذهب والفضة والمعادن الكريمة قد تأتى بالطعام ، ولكن إذا لم يكن هناك طعام ، فمن المستحيل أن تأتى به .

إن الإنسان ـ إذا رحل الى دنيا الغرب ـ لن يأخذ أمواله ولا أراضيه معه . وستكون أعماله بجانبه ـ بعد الموت ـ مكدسة ، فلا يستطيع أن ينكرها ، أو يتخلص من تبعاتها .

السؤال الحادى والعشرون

قال أوزوريس :

ـ لقد اقتربت من الاجابة على نصف الأسئلة . فأنت فى غير حاجة إلى النصيحة : كيف تجيب ؟

جال بعينى النور فى الآلهة المحيطين :

ـ من الآن ، لن تكون سوى الأسئلة منى ، والأجوبة من الرجل .

واتجه بالسؤال الى زاو مخو :

ـ هل تجنبت طريق الصواب حين بدا لك محفوفا بالأخطار ؟

قال زاو مخو :

أنظروا . لقد اختفت كل الأشياء الطيبة ، واستولى الشر على البلاد ، وتنكر الناس لبعضهم البعض .

لم تعد هناك ميزة لأب ولا أم ولا أخوة ولا أقارب ، والجيران أصبحوا من الأعداء .

لم يعد إنسان يحصل على الخبز إلا بمعركة يخوضها ، ويجلس مع نفسه ، أو مع الآخرين ، فلا يشغله سوى أمر نفسه . وفرض الكثيرون رأيهم وقوتهم على الأعداد القليلة ، وصارت الخادمات يثرثرن بلا سبب . وربما أولين ظهورهن لسيدات البيوت ، لا يلبين ما يصدر إليهن من أوامر .

راحت الفتنة تنفث سمومها ، وتمد جذورها ، ونسجت المؤامرات بمهارة وحذق .

سادت الفوضى البلاد ، وغاب من يرثى لها . أصبح كل واحد مشغولاً بنفسه ، ويتصور أنه بديل للفرعون .

تطاحن الولاة وتشاحنوا ، واعتدى بعضهم على بعض ، وعمت

الفوضى ، وشاع الاضطراب فى القرى والدساكر ، وتفشى السلب والنهب ، واغتيل الأبرياء .

ألف الناس ماكانوا يعتبرونه ـ فى الماضى ـ من المستحيلات ، فالزوجة تدس السم لزوجها ، والابن يفتك بأبيه ، والجار يترصد لجاره ، والحقد يملأ الصدور ، والحب قليل ، أو أنه انعدم .

طرد السراة من قصورهم . احتلها الفقراء بدلًا منهم ، ولم يعد غريبا أن يرى المرء نساء السراة يتبعن الماشية ، ويجمعن ما تخلفه وراءها من روث . وانتشرت العصابات فى المعابد والقصور والشوارع والدكاكين ، يقتلون ويسرقون ويسلبون الناس ما بأيديهم ، ومن كانوا يعانون عذاب السجون ، جلسوا على المنصات العالية ، وذبحوا العدالة قرباناً لشياطين الشر، وانتهكت مقابر الملوك والسادة ، وخربت معابد الآلهة ، وهشمت النقوش ، وموائد القرابين . لم يسلم من الأذى إنسان ولا حيوان ولا أى شىء ذى ظل ، واحترقت البنايات والأشجار والمحاصيل ، وتقلص الحق فى كل مكان ، فلم يعد الناس يسمعون البكاء على مال منهوب ، أو أرض مسلوبة ، أو أفراد غيبتهم قوى الشر .

لم تعد الطرق مأمونة ، فاختبأ اللصوص بين الأشجار حتى يمر الناس ، فيسطون على متاعهم ويسرقون حتى ما يحملون من تمائم . والأمتعة تسرق ـ أحياناً من تحت الرءوس دون أن يشعر أصحابها ، وكل شخص يمشى ، يتلفت حوله ووراءه . يتوقع الغدر من حيث لا يدرى ، وعامل الناس آلهتهم كما لو كانت بشراً ، وامتنعوا عن تقديم القرابين ، فتهدمت المعابد ، وهجرت هياكلها ، وأصبحت أنقاضاً ، وأدارت الآلهة ظهرها للبلاد . وإذا صلى إنسان لإله يسأله النصح ، لا يستجيب له ، ولا يأتى أبداً .

لم يعد فى الزمان ملامح حق . كل الأشياء الطيبة ولت . ولا أحد يعنى باستعادتها ، والشفاه تتساءل : هل نام الخير ؟ أين هو ؟

تضاعفت أعداد المنتحرين ، وقتل بعض الناس أطفالهم فور ولادتهم ، وتمنى الجميع زوال العالم .

قدم الشتاء فى الصيف ، وأشرقت الشمس فى الغرب ، وأنكر المرء أقرب الناس إليه .

لم يتأخر النيل عن موعده . لكن الفلاحين أهملوا الزراعة ، والصناع أغلقوا محالهم ، وأصبح الزمان للأشرار ، هم السادة ، وهم الذين يتولون قيادة الأمور ، فلا يبصر المرء ـ فيما حوله ـ سوى أهل الشر . يتحركون فى الحقول ، وفى المعابد ، وفى نواصى الطرق ، ويظلمون الناس باسم جلالته ، وكبار الموظفين يمدون أيديهم ، والقضاة يتقاضون الرشا ، ويصدروا الأحكام الباطلة ، والذى مهمته حفظ الأمن يبث الخوف فى نفوس الآمنين ، والذى عليه أن يقضى على الشرور ، يسرف فى اللجوء اليها ، والبيوت يطرد منها أهلها ، ليقطنها الغرباء . وعانت البلاد خطر التفتت والانقسام فى الداخل ، وخطر الغزو من الخارج .

ارتفع الفيضان فى جميع انحاء البلاد . غزا الشاطئين ، واكتسح الأرض مثل البحر ، وتهاوت جميع الجسور التى بناها الناس أمام جبروته ، وأصبح الناس مثل الطيور ، فهم قد أقاموا فوق النخيل ، أو على أغصان الشجر . أما المعابد والبيوت ، فقد صارت مثل المستنقعات .

ثم زحفت الصحراء على البلاد ، وعقمت النساء ، فهن لا يحملن ، والنيل يفيض فلا يجد الزرع الذى يرويه ، وقلت الحبوب ، وتضاءلت المحاصيل ، وأصبح كل شىء باعثاً على الكآبة .

لم يعد للفرحة مكان فى القلوب . وراح الناس يطلبون الموت ، ويحاولون الخلاص من الأشياء القبيحة . قالوا : ليت نهاية العالم تقبل ، فلا يكون حمل ولا ولادة ، وتخلو الأرض من النزاع والمشاحنات .

لقد شيدت مقبرتى من مواد جديدة ، ولم أحصل على شىء يملكه سواى . وضعت فى داخلها أسلحة ومقاعد وصناديق وأدوات للتجميل والزينة وملابس وزيوتاً ذات رائحة طيبة .

أنظروا إذن . ما أعددت له نفسى من حياة هانئة مع الأسلاف الراحلين فى مقابر الجبل الغربى ، سيتبدد كما تغطى دموع ايزيس المقدسة البيوت والحقول فى زمن الفيضان ، لو أن يد التخريب امتدت الى المقبرة ، فعبثت بها .

حرصت على أن يكون من الكتابات التى تطالع الزائر فى البهو المفضى إلى بيتى الابدى ، عبارات تؤكد أن كل من يدخل المقبرة ، ويشاهد

مافيها ، ويصون الكتابات ، سيصبح شيخاً فى قريته ، وشخصاً محترماً فى مقاطعته . فاذا أصر على إتلاف المقبرة بيد التشويه . تحطيم حجر ، أو نقل قطعة طوب من مكانها ، أو تشويه الجدران ، فانى سأدعوه إلى محكمة الغرب ، حين يسبقنى أو يلحق بى ، لتحاسبه الآلهة على ما فعل .

ولكن أعدائى لم يعبئوا بكل العبارات الطيبة والتحذيرات . شوهوا جدران المقبرة بقسوة . فاتهم أن من يصيب مقبرتى يضع نفسه تحت غضب الآلهة . تأمر الثعبان ، فيقذف اللهب فى وجهه ، وينهش لحمه ، ويلتهم جسمه . انهم لن ينعموا بازدراد قرابين الموتى ، ولن يصب عليهم ماء النهر ، ولن يرث أبناؤهم وظائفهم ، وتهتك أعراض نسائهم أمام أعينهم ، فلا يقدرون على فعل شيء .

ما آلمنى ان رئيس الكهنة تجاهل أقوالى . لم يعطنى سمعه حين تحدثت اليه ، ولا كلف جنود المعبد باحضار هؤلاء الذين شوهوا مقبرتى ، وإلقائهم فى حصن بيت آمون رع ، حتى أضعهم تحت قدمى جلالته ، ليقرر ما ينبغى عقابهم به .

قلت وأنا أعرض عليه قطعة حجر تناثرت بمعاول المجرمين :
ـ مع سرقة بيوت الآخرة وتشويهها من سلطة الكهنة .

توقف عن تمتمته بالأدعية :
ـ نحن نذرنا أنفسنا للآلهة وحدها .

قلت :
ـ المقابر هى صلة الإنسان بين الحياة الدنيا وعالم الغرب .

وعلا صوتى :
ـ انهم يحطمون تلك الصلة .

وهو يتجه إلى داخل المعبد :
ـ لسنا سلطة أمن ولا تحقيق . نحن نقدم القرابين للآلهة ، ونرفع الصلوات .
أتى لى أتباعى بأحد الجناة .

كانت العصا هى الوسيلة الوحيدة لاجباره على الكلام . أمرت ، فكتفه

أتباعي ، ولووا يديه ورجليه ، وضربوه بالعصا ، كما ينبغى أن يضرب ، على يديه ورجليه . وهددوه بجدع أنفه ، وصلم أذنه ، وإجلاسه فوق وتد .

لم يسعفه الجواب عن ازميل ألقى به بعيداً ، حين رأوه :
ـ لماذا فعلت ما فعلت ؟

من بين لهاث انفاسه :
ـ أنا لم أفعل شيئاً .

قلت :
ـ لقد شوهت مقبرتي .

وهو يهز كتفيه :
ـ من رآنى ؟

قلت بدهشة :
ـ ضبطك رجالى والازميل فى يدك .

فى لهجة مستخفة :
ـ هل حظرت القوانين حمل الازميل ؟!

بدت مناقشته متعبة ، والوصول الى من حرضوه على مخالفة تعاليم الآلهة ، مسألة تقرب من المستحيل .

أنهيت حوارى معه ، وصرفته حالاً . أزمعت أن أحيط أعدائى بشباكهم ، وان حذرت الرجل أن ما أقدم على فعله سيحاكم بسببه أمام الإله الأعظم .

ألا يوجهى ، انى لم أفزع لتخويف ، ولا شغلنى اضطهاد . كنت واثقاً بنفسى إلى الدرجة التى أستطيع بها أن أواجه كل شىء .

أمرت أتباعى ، فتبسللوا فى ليلة كان تحوت ، إله القمر ، قد استقر فى فراشه ، فجثم الظلام بما لا يهب الفرصة لتبين الأشياء . أعملوا معاولهم وآلاتهم الحادة فى جدران مقبرة جارى انبو ام عنخ ، حتى تشوهت تماماً . أما أتباعه ، فقد هدمت منازلهم ، وأزيلت المناطق التى كانوا قد استقروا فيها . أصبحوا وكأنهم لم يخلقوا أبداً .

شكوت إلى الملك تدبير جارى ، وما أقدم عليه أتباعه . كان أتباعى قد أخفوا معاولهم وألاتهم - حتى تلك التى استخدموها فى تدمير مقبرة إنبو ام عنخ - فى حقل له زرعه بالقمح على حافة الضفة الشرقية للنهر . عثر جنود الملك على المعاول والآلات ، فرفض سماع دفاع جارى عن نفسه ، وأمره بأن يعيد بناء مقبرتى من أمواله . ثم أمر باعدامه حتى الفناء ، يحرق على الأعشاب ، فلا يبقى من جسده شىء يدخل المقبرة .

صنع جلالته أشياء جميلة . رضيت البلاد به ، وأحبه الناس ، وتمنوا بقاءه معهم ، فلا يرحل إلى عالم آبائه أبداً .

فتح المعابد ، وطالب الناس بتناسى ما فات ، وأن يعودوا إلى أعمالهم ، وإلى تقدماتهم ، وأصدر أعدل القوانين والمراسيم ، ورفع من شأن شعبه . أحيا الصدق ، وأمات الكذب ، وحقق الخير ، وطرد الخداع ، وانكفأ الأشرار على وجوههم . ومن كان ذا ساعد ضعيف ، أصبح ذا ساعد قوى .

لم يعد للخوف أثر فى نفوس الناس ، وفاضت الأرض بالخيرات ، وامتلأت البطون الجائعة ، وأصبحت الآبار مباحة ، يستطيع أن يردها كل مسافر ، وماشية الحقول تسير بحريتها دون رعاية ، ومن ينام فى الطريق كأنه ينام فى بيته ، لا يخشى الاعتداء أو السرقة ، ويذهب الإنسان ويأتى وهو يغنى ، وزينت حدائق بيت الآخرة باللوتس والبردى ، وغطيت نوافذه بالحصر الملونة ، وكسيت بها الأرض ، وزينت بالنقوش الزاهية تيجان الأعمدة والافاريز ، وملأت حواجز الجدران بمشاهد حياتنا العائلية .

السؤال الثانى والعشرون

قال أوزوريس :

- هل اعترفت بالجميل لكل من أسداه لك فى رحلة الحياة ، سواء أكان إنسانا وقف إلى جانبك ، أو حيواناً امتطيته ، أو شجرة رمان أكلت ثمارها ؟

قال زاو مخو :

كان سنجب ايب أفضل أصدقائى . تعارفنا فى الصبا ، وظلت صداقتنا إلى ما بعد الزواج . لم أنصت إلى تحذيرات الوشاة بأنه هو الذى دفع

ميرية إلى طلب الفراق ، وإن واجهته ـ ذات أصيل ـ بما سمعته :
ـ لم أهجر زوجتى يوماً ، بل حافظت عليها فى السراء والضراء .

قال سنجب ايب :
ـ هذا صحيح .

قلت :
ـ قيل لى انك تحرضها على فراقى ؟

قال :
ـ هل أحرض امرأة على فراق والد ابنائها ؟

قلت :
ـ كلما زرتنا ، واجهتنى بعين الغضب .

قال :
ـ لا شأن لى بخلافاتكما الزوجية .

استطرد فى تنبه :
ـ وإن كنت أعلم أن بعض تصرفاتك هى السبب . أما تجدد صداقتها بالرجل فهو نتيجة .

قلت :
ـ إذن ، فأنت تعرف بخلافاتنا ؟

قال :
ـ كانت تبدى ملاحظات على تصرفاتك . ثم صارحتنى ـ ذات يوم ـ برغبتها فى العودة الى صديق طفولة . رجوتها أن ترعى صداقتنا ، وتطلب المشورة من غيرى .

قلت :
ـ ألم تنصحها بطلب الفراق ؟

قال :
ـ أنت أخى ، مثلما أن الفاضلة زوجتك هى أختى .

حين صحبنى سنجب ايب فى رحلة صيد ، كان أول ما نبهته إليه ، أن

يظل بجانبى ، لا يفارقنى إلى داخل الصحراء . الصحراء خارج القرية تمتد إلى ما لا تبلغه العين . تقع فى نهاية صف المدن والقرى الذى يتشكل منه الاقليم . يتسلل إليها ما يحيا فى الصحراء من الحيوان : الغزلان والأيائل والظباء والثيران . من يجازف بدخول هذه الأراضى المطهرة ، عليه أن يعد نفسه لذلك ، فلا يعانى الجوع أو العطش أو هجوم الحيوانات المفترسة كالأسد والفهد والضبع والذئب . وثمة مخلوقات تحيا داخل الصحراء ، تختلف عن الحيوانات التى نتذكر صورها وأسماءها : عقاب يحمل على عنقه رأس إنسان ، وفهد له رقبة تعلو رقبة الزرافة ، وذئب بذيل صلب كالسهم ، وحيوانات أخرى ذات أشكال غريبة ، لا تنتهى .

لم أكن رأيت تلك المخلوقات من قبل ، ولكننى استمعت كثيراً إلى أوصافها وأشكالها الغريبة ، وافتراسها لكل من تتوه به قدماه فى الصحراء .

نسى سنجب ايب نفسه ، فتوغل داخل الصحراء .

ما أشق الطريق التى تخلو من البشر ، ومن الطعام والماء . ما أوحش الطريق التى يخشى فيها المرء مواجهة الوحوش المفترسة والطيور الكاسرة .

طارد غزالاً ، فلم يتوقف حين كان ينبغى ذلك . واصل مطاردته حتى تلقفته الصحراء برمالها التى لا تنتهى . ضل طريقه حتى افترسه ـ ربما ـ حيوان من التى تغيب صورة بعضها ، وربما تناوشته ، ونهشت جسمه ، طيور السماء .

قيل انى كلفت أتباعى بإلقائه فى القفار .

ذلك مالم أفعله ولا فكرت فيه ، والآلهة المبجلة أعلم ان كانت روايتى صحيحة ، أم أنى ارتكبت ما اتهمنى به الآخرون ؟

حزنت على غياب سنجب ايب حزناً شديداً ، وتابعت خدمى وهم يبحثون عنه فى القرى القريبة ، وفى الضفة الأخرى للنهر ، وفى الصحراء المحيطة .

عادوا يلفهم حزن عميق ، كأنهم فقدوا أنفسهم ، أو أغلى ما يمتلكون .

هل قتله الجوع ؟ أو مات من الظمأ ؟ أو افترسته حيوانات الصحراء المفترسة ؟ أو أنه كان صيداً لوحوش السماء .. ذلك ما لا أستطيع أن أقرره ، ولا أن أفكر فيه . يصعب أن أتصور الرجل الطيب فى موقف الضعف والتخاذل .

قيل أنى ألقيت به فى الصحراء ، فتنهشه الطيور الجارحة والحيوانات المفترسة . وقيل ان أتباعى شدوه إلى عامود فى الصحراء ، وترك للطيور تفترسه .

ألا بوجهى . لقد دعوت الآلهة أن تجعل طريقه نهراً ، والصحراء الواسعة مزدهرة الخضرة .

ما حدث إنما هو من فعل روح من أرواح الشر ، أو نفثة عدو حاسد ، أو عدوان شبح عائد ، وربما سخط المعبودة المرعبة "سخمة" .

قسما بحياة الآلهة ، انى لم أعاقب أحداً بلا ذنب . وكنت صديقا لمن بذل لى الود . لم أحاول أن أتقمص هيئة الصقر الذى يفترس صغار الطير ، ولا وضعت السيئة مكان الحسنة ، ولا شيئا مكان شيء آخر . ولم يقض واحد من الناس ليله ساهرا ، يجتر مافعلته ضده ، أو يدبر للنيل منى .

السؤال الثالث والعشرون

قال أوزوريس :

ـ هل تصدقت بخبزك على المحتاجين ، وبثمار حقلك على المتعبين ؟

قال زاو مخو :

صار لى بيت واسع ، تحيط به الحدائق ، أثثته بالرياش الفاخر . وضعت الطيب فوق رأسى ، وتدثرت بأفخر الكتان ، وتطيبت بالعطور التى تتخذها الآلهة ، واقتنيت الجياد المطهمة ، وأدبت المآدب الفخمة ، واستمتعت بالغناء والرقص ، وبات عندى عدد كبير من الخدم والعبيد ، وأصبحت أحد الرجال المرموقين الذين يشملهم رضاء الإله . وشاركت ـ قبل أن أصبح مسئولاً عن قريتى ـ فى المجلس المحلى للسراة . قلت آراء وتوجيهات مفيدة . وكنت أصمت حين يبدو لى إلقاء الأقوال سخيفاً وبلا معنى . وكانت

نصيحتى لمن أعرفهم : استمتعوا بحياتكم ، وانسوا أنكم سترحلون ـ ذات يوم ـ إلى عالم الغرب .

وعندما تأخر الفيضان ، وحلت المجاعة ، فتحت مخازن غلالى ، وأعطيت أهل ونيس ما يحتاجونه من طعام . ملأت بطونهم ، وأطفأت عطشهم ، ورطبت حلوقهم . زودتهم بما يحفظ لهم الحياة حتى يمتدحونى أمام محكمة الآلهة .

كان ذلك شأنى دائماً .

فعلت ما كان ينبغى أن أفعله حتى أروى الظامىء ، وأسد جوع الفقير ، وأكسو العارى .

منحت أتباعى الحقول . جعلت فى حيازتهم قطعان الماشية . وفرت لهم الطعام والشراب ، وكل ما تشتهيه الأنفس . ملأت المخازن بالمحاصيل ، حتى لا يأتى يوم لا يجدون فيه ما يأكلون .

حاولت أن أكون الظل لمن أحرقته حرارة الشمس من أبناء قريتى ، فلم يعد هناك فقير ولا جائع .

العظيم من كان أبناء قريته ميسورى الحال ، ولهم الكلمة المسموعة بين أبناء القرى الأخرى .

وحين أوكل إلى جلالته أمور القرى المجاورة ، بعد أن نال هيرا ، حاكم الاقليم ، عقابه ، أعطيت خبزاً لكل الجائعين ، وكسوت من كان عرياناً ، وحنوت على اليتيم ، وأنصفت المظلوم ، وأغثت الملهوف ، ووهبت الفقير ما أسعده ، وصرت حصناً للبائسين .

ملأت الحقول بالماشية والقطعان ، وأشبعت حتى الذئاب والثعالب وطيور السماء ، بلحوم الحيوان .

لم أقس على من سرق ولا يملك شيئاً . انه فقير يلتمس قوته ، وربما قوت عياله . إذا سرق المحروم ، فإنى أتردد كثيراً قبل أن أعاقبه . وإذا عاقبته ، فانى لا أسرف فى القسوة عليه . وكل من أعلن شكايته ، أعطيته انتباهى ، وأمرت بحل مشكلته .

لم تعد الأرامل ـ فى كل القرى ـ يغلقن أبواب بيوتهن ، وتردد عليهن

الزائرون دون خشية من نظرة متوجسة ، أو ساخطة .

الشعور بالاشفاق كان يتملكنى ، وأنا أجلس إلى هؤلاء الذين أعلنوا الوصول الى نهاية مشوار الحياة ، فلم يعد أمامهم سوى انتظار الموت . الحياة لا معنى لها بلا عمل ، الصحو والأكل وتصريف الفضلات والاستغراق فى اللاشىء ، ثم النوم .

انظروا اذن . إن جلالته لم يوكل لى أمر الاقليم إلا بعد أن حققت من الثراء ما يجعلنى فى غير حاجة إلى أموال الآخرين . أدركت أن واجبى هو أن أعطى ولا آخذ ، فلا يصبح فى القرى التى يضمها الاقليم جائع ولا عار ولا ذو حاجة .

السؤال الرابع والعشرون

قال أوزوريس :

ـ هل صنت لسانك عن شهادة الزور والنطق بالكذب ؟

قال زاو مخو :

ـ الكذب خطيئة لا تغتفر .

لقد رويتُ دائماً ما تصورت أنه الصدق . لم أضف إليه ولا حذفت منه . وقدرت أن الآلهة تبصر أفعالى ، وتزن كلماتى ، وتفرق بين ماهو حقيقة وخيال .

كان النيل قد انحسر ، وأخمدت رياح الشمال رياح الجنوب تماماً ، وأصبح النهار أقصر من الليل ، وتجرد الشجر من أوراقه ، وتدثر الناس بالثياب السميكة ، وبالأغطية .

كنت مشغولاً . أراقب تدبير المؤامرة ضد الملك ، وأتابع نسج خيوطها .

عرفت بالتدبير ـ مصادفة ـ قبل أن يبدأ المتآمرون فى تنفيذه . أبلغنى بتفصيلاته خادمى إيمسخ . رواه له خادم عند هيرا . لم تشغلنى المشقة التى تحملتها حتى وصلت إلى قصر الملك ، وطلبت الاذن بالمثول بين يدى جلالته .

كان قد تصدر القاعة الواسعة . على يمينه حامل المروحة ، ومن حوله

الوزير ، ورئيس الرماة ، والمشرف على البلاد الأجنبية ، والمشرف على حصن ثارو ، والكاتب الملكى ، والمشرف على الخيالة .

كان أهم مافى عملى إخماد أى تمرد ، واسكات كل فم تخرج منه كلمة ضد الفرعون .

وحين رأى جلالته امارات التعب فى وجهى ، أمر لى بكوب ماء ، وانتظر ، فلم يستمع الى السر الذى أحمله إلا بعد أن هدأ جسمى ، واستقرت مشاعرى .

قال لى الملك :

- لا تدفعنى إلى أذية مظلوم .

قلت :

- لم أفكر فى تبليغ جلالتكم إلا بعد أن اطمأننت إلى ما لدى من معلومات .

عين جلالته هيرا حاكماً على أربعة عشر مدينة كبيرة ، وثلاثين قرية صغيرة ، تتبعها . وكانت مهامه تشمل الاشراف على جمع الضرائب ، وحفر الترع ، واقامة الجسور ، وتجنيد الأفراد ، وارسالهم ليشاركوا جنود جلالته دفاعهم عن مناطق الحدود .

لكن الحسد أغراه ، لأنى أخذت موضعاً فى قلب جلالته أراد أن يكون هو فيه . ثم زاد ، فتوهم انه فوق ابن الآلهة ، وان الانقلاب على جلالته مسألة سهلة .

دفع أعوانه لقتل جلالته ، على أن ترافق محاولتهم المجرمة ثورة يساق إليها الناس دون أن يدروا بخبثها .

الادعاء بثورة الشعب على الملك ، وسعيه الى اقصائه عن العرش ، أو قتله ، أكذوبة أشاعها الأعداء ليسيئوا إلى جلالته ، ويشوهوا وجهه .

خرج الناس من بيوتهم وأعمالهم بتحريض من المتآمرين الذين صوروا لهم الأمر بعكس ما كان عليه .

كانت المخازن وافرة بالغلال ، والمراعى ممتلئة بالماشية ، وأنواع

الطعام بلا حصر فى كل البيوت ، لم تذهب إلى بيت الغنى ، وتخطىء بيت الفقير .

خاطب الناس وأثارهم ، حتى يعلنوا العصيان ضد جلالته ، وتؤول أمور الناس إلى أيدى من يرتكبون الشر ، ويقترفون الآثام ، فخرجت النساء الى الطرقات يطلبن الفرار من الأقدام الغريبة التى وطئت بيوتهن ، وأصبح الأثرياء فقراء ومحتاجين . أما من كانوا يرتدون الكتان الزاهى الجميل ، فقد أصبحت ثيابهم أسمالاً بالية .

اضطربت الأمور ، ووضع كل واحد لنفسه القانون الذى يطبقه . حتى القوانين التى صدرت لصالح الناس ، ألقيت فى الشوارع ، ووطئتها الأقدام .

واستطاعت يد جلالته القوية أن تملك البلاد ، وتسيطر على أقاليمها . انكفأ الأشرار على وجوههم وهم يجأرون . لم يعد الخوف يشغل النفوس . صارت النساء يسرن حيثما يردن فلا يتبعهن أحد ، ولا يضايقهن إنسان . والذين ينامون على الطريق كأنما كانوا ينامون فى بيوتهم .

علمت أن المتآمرين لجأوا إلى السحر الأسود ، يتلون رقاه وتعاويذه ، ويوزع المتآمرون طلاسمه فى أرجاء القصر ، فلا يرى الحراس ولا الموظفون أو الخدم تدبيرهم ، حتى يأتى مفعوله .

قال جلالته فى صوت مؤثر :
ـ لقد تمكن المرض منى أيها المواطن زاو مخو ، وحان وقت رحيلى إلى الأبدية .

وقال جلالته :
ـ انى أثق فيك أيها المواطن . ولكن عقاب المظلوم يجعلنى ظالما ، وهذا ما لا أحبه .

وأضاف الملك :
ـ عليك أن تتولى التحقيق مع المتآمرين بنفسك ، فلا تقدم للقضاء إلا من تحيط الشكوك برقابهم .

بذل المتآمرون الكثير من وسائل الاغراء الدنىء لاستمالتى ، ودفعى إلى صرف النظر عن المؤامرة . لكن اخلاصى لجلالته فوت على المتآمرين ما

أرادوا ، فواصلت التحقيق بلا إبطاء ولا ملل ، حتى استطعت أن أحدد لكل متآمر تهمته .

وعندما أصدر القضاة أحكامهم ، فانهم أكدوا انى تحريت الصدق فى تحقيقاتى ، ولم أظلم أحداً من المجرمين .

اعترف المتآمرون - دون تعذيب - بخيانتهم . أفاضوا فى شرح تفصيلات المؤامرة من بداياتها . عينوا - بالاسم - كل من شارك فيها . حتى المتواطئون بالصمت ذكروا أسماءهم ، فحق عليهم عقاب جلالته .

وإذا كان جلالته قد أصدر أوامره بأن ينال كل متآمر ما يستحقه من عقاب ، فانه أمر كذلك بألا يؤخذ برىء ظلماً بعقوبة ، لا استدراك فيها .

دفعت من الأدلة والوثائق ما يؤكد اشتراك كل من ذكرت أسماءهم فى الاعداد للمؤامرة الدنيئة . لم أظلم أحداً ، ولا تجنيت عليه ، ولا رميته بالباطل . وبعد أن أنصت القضاة الى دفاعهم ، فانهم أصدروا - دون إيعاز - حكمهم باعدام كل من شارك ، أو تواطأ - ولو بالصمت - فى المؤامرة الدنيئة .

وصدق جلالته على الأحكام ، وان أمر بأن تغلق أبواب إحدى الغرف على الجانى ، لينهى هيرا أيامه بيده . وعاقبه بمحو اسمه ، والقضاء على روحه ، وتحريم البقاء فى المقبرة على جسمه .

انبطح الرجل يصرخ طالباً الرحمة ، ولكنه كان يستحق العقاب الذى ناله .

أما أعوان هيرا ، فقد فضل جلالته - رحمة بهم - أن ينهوا حياتهم بأيديهم ، بالوسيلة التى يختارونها . وفيما عدا واحد فضل أن يجرع السم ، فان الباقين آثروا أن يغوصوا فى زكائب مغلقة من الكتان ، داخل مياه الإله حابى ، ربما تدركهم رحمته .

أظهر جلالته عطفه وتكريمه لى . أمر بأن أدهن بالعطر والطيب فى حضرته ، وأتحلى بالقلائد الثمينة .

وقال لى : فليكافئك رع على كل ما قمت به من أفعال . ولتكافئك الآلهة على إخلاصك .

وأمر جلالته بأن توهب لى أموال وأراض وملابس . وأقر ذلك من فى القصر جميعاً . وزاد ، فمنحنى جميع أموال هيرا وأراضيه . لم يكتف بعقابه ، انما شاءت ارادته الالهية أن يمتد ذلك العقاب ، فيشمل ورثته كذلك .

وبعد أن انتهت اعوام جلالته فى هذه الحياة ؛ فإنه صعد إلى السماء ، وامتزج بالآلهة .

قسما بحياتى الخالدة ، انى كنت أحرص ـ دائماً ـ على قول الصدق . لم أنطق بالكذب على علم منى . وإذا كان ذلك قد حدث ، فانى لم أفعله ثانية .

السؤال الخامس والعشرون

قال أوزوريس :

ـ هل أخذك الغرور ، فتصورت نفسك ذكيا ، حتى ضاعت منك حكمتك ؟.

قال زاو مخو :

ـ زعموا أنى أمرت النجارين ، فصنعوا دمى خشبية ، تمثل خدمى الكثيرين . توضع معى فى القبر ، تتولى أداء ما يجب أداؤه بعد الموت ، مثلما كانت تفعل ذلك فى الحياة الدنيا .

زعم باطل ، وبلا أساس .

رجوت اخوتى النجارين أن يصنعوا دمى الأوشابتى الصغيرة . المحجبات التى تجيب على النداء ، لتوضع فى قبر الملك ، كى تصبح فى خدمته عند حياته فى الأبدية .

أردت أن أقدم لجلالته بعض الكثير الذى أسداه لى .

لم تكن الدمى من أجل بيتى الأخير ، ولكنها كانت للملك ، حين يدخل الإله أفقه ، ويصعد الى السماء ، يقترن بضوء الشمس . تلقاه الآلهة وهم يرتدون الكتان الجميل ، وينتعلون النعال البيضاء . يقذفون بالملابس والنعال ، ويهتفون فى سرور : هأنتذا أيها الإله الجميل . ان قلوبنا لم تعرف الفرح إلا عند قدومك !

من يدخل الجنة ـ حتى الملك نفسه ـ لابد أن يعمل فى حقولها . أردت باهدائى تماثيل الأوشابتى لقبر جلالته أن أرد له بعض جمائله . أوفر له من يعمل فى الحقول بدلاً منه . إذا طار الصقر إلى السماء وجد من يؤدى بدلاً منه كل ما يطلب اليه أداؤه فى حقول الأبدية .

هذا هو دور الأوشابتى .

وعندما يأمر أوزوريس المبجل جلالة الملك بحرث الحقول ، ملء الجداول بالمياه ، تقليم الأشجار ، حمل الرمال من الشرق الى الغرب .. فان الأوشابتى يجيب ويعمل بدلاً منه .

واذا نودى على الأوشابتى للقيام بعمل فى حقول الآخرة ، بدلا من ابن الإله المبجل ، قال من فوره : هأنذا .

أوكلت إلى أمهر الخطاطين . كتب التعويذة التى تستدعى هؤلاء الذين ينوبون فى العمل عن جلالته ، حين يستدعى فى الصباح إلى قوائم العمل . إذا كان الملك مرسو رع ينادى ، وإذا وضع فى قائمة لتأدية أى عمل فى العالم الآخر ، كرجل يؤدى واجباته ، يزرع الحقول ، بروى شواطىء النهر ، ينقل رمال الشرق الى الشاطىء .. فانك ـ والأوشابتى ـ تقول : أنا حاضر هنا !

قسما بحياة الآلهة ، انى لم أتعد ـ ذات يوم ـ وحى ضميرى ، ولاخالفته ، ولا قدمت على فعل ماترفضه النفوس الطيبة .

رفضت المحاباة ، وتصرفت وفقا للعدل ، وعاملت من أصادقه كما أعامل الغريب .

لم أقف من أهالى ونيس موقف السيد . كنت ابنا للكبير ، وأبا للصغير ، وأخا لمن كانوا فى مثل سنى ..

لم أبلغ بالإيذاء من لايستحقه ، ولا أسرفت فى القسوة على من كان خطؤه صغيرا ، وأحسنت الإصغاء والفهم وتقدير الظروف ، وكنت أحرص على أن يتم كل شىء فى إطار العرف والقانون .

السؤال السادس والعشرون

قال أوزوريس :

ـ هل ربطتك سلاسل الكراهية بانسان ؟

قال زاومخو :
ما أجمل ذلك اليوم الذى انشغل فيه الفلاحون بحصاد القمح . أمسك الرجال بالمناجل ذات الأيدى القصيرة ، يقطعون قبضات السنابل من أسفل ، والنساء من بعد يجمعن السنابل فى مقاطف ، وينقلنها . والكاتب آخر الحقل ، يكيل المحصول قبل أن تحمله الحمير الى المخازن .

وقفت على رأس الحقل ، أفتش بين الوجوه عن جارى باخوم ، الذى كنت أدينه .

لم يكن يستطيع الإنكار ، فها هو ذا المحصول يجنى ، ويوضع فى كومات ، قبل أن ينقله المشترون

قلت :
ـ صباح جميل أيها الجار العزيز .
قال :
ـ صباح جميل أيها السيد الموقر .
قلت :
ـ أعطيتك ما كنت تحتاجه من نبات البردى . لكنك ـ حتى الآن ـ لم تسلمنى ما أحتاجه من القمح .
قال بصوت متوسل :
ـ كما ترى أيها السيد الموقر .. فقد التهمت الطيور معظم ما أنتجته الأرض ، وما بقى يكاد لايفى بما أحتاجه .
قلت :
ـ ألن أحصل على حاجتى من القمح ؟
قال فى صوته المتوسل :
ـ ما أرجوه أن تهبنى أياما لأدبر نفسى .
قلت :
ـ أيها الجار العزيز .. يصعب أن أشاهد المحصول أمامى ، دون أن أحصل على حاجتى منه .
ويل لصاحب الأرض الذى يخفى جزءا من محصوله عن رجال الملك . ذلك مافعله جارى ، فأوقع نفسه فى مأزق . إنه لم يحاول حتى أن يقبل الأرض فى احترام . ـ كما جرت العادة ـ بين هؤلاء الذين يمثلون الملك .

كان يرأسهم نبامون ، الرجل المسئول عن كل ما تأتى به السماء ، وما تنبته الأرض .

لم أحاول أذية باخوم بنفسى ، وانما تركت رجال الملك يحصلون على حق جلالته وحقى . نزلوا الحقول ومعهم أدوات الكتابة والكيل . حصلوا على المحصول قبل أن يحاول جارى إخفاء حبة منه .

أمر الرجل المسئول عن كل ما تأتى به السماء ، وما تنبته الأرض ، فألقوا جارى أرضا ، وضربوه بالعصا على قدميه ضربات متوالية ، مائة ضربة ، وفتح فى جسمه خمسة جروح .

انظروا . إنى لم أحاول تخطى التعليمات التى أمرنى بها جلالته ، ولا أن أسىء تفسيرها ، أو أتجاهل ماقد يكون فى صالح الآخرين .

لم أتصور ـ وهو تصور كبار الموظفين ـ ان الفلاح هو مجرد فلاح ، وأن القسوة هى مايجب أن يعامل به .

لم تتسلل إلى نفسى ـ يوما ـ كراهية انسان ..

أعطيت الخبز للجائع ، والماء للصادى ، والملبس للعارى ، وكنت والد اليتيم ، وزوج الأرملة ، وأخ من وجد نفسه فى الحياة وحيدا ..

معرفتى بالأمور الدينية ، وأدائى للصلوات والأدعية ، وقيامى بواجبات المعبد ، وسماعى لأقوال الكهنة الموقرين .. أتاحت لى إرشاد الناس إلى ماغمض عنهم من أمور الحياة الآخرة ، كانوا ينصتون ، ويهزون رءوسهم فى اقتناع .

لقد تزودت بكل أسرار المعرفة ، فلم أبخل بها على من حولى ، لم أفرق ـ فى ذلك ـ بين عظيم وحقير ، ولا حتى إن كان ينتسب الى أسرتى أو أنه من الفلاحين .

قدمت كل ماهو خير ، وشجعت من طلبوا العون بإشارة من رأسى ، وأصغيت الى شكاواهم . لم أصرف شاكيا دون أن أسمع شكواه ، ولاطردته لغير سبب ..

صرت حصنا ، يأوى اليه الضعفاء والفقراء والملهوفون . لى موقعى فى نفوس المحيطين بى ، وكلمتى بينهم نافذة .

لم أغلب القوى على الضعيف ، ولا انتصرت للظالم على المظلوم ، ولا استلبت من صاحب الحق ، فأعطيت ماليس له حق ، وإذا قسا كبير على صغير ، وقوى على ضعيف ، فإني أسارع إلى الصغير أو الضعيف فأساعده ، وأجعله يدعو لى ، ويلهج بالثناء .

لقنت لأبناء قريتى نصيحة الحكيم آنى : « اتخذ من شرطى شارعك صديقا لك ، ولاتجعله يثور عليك ، ولاتتغاضى عنه وقت صلاتك ، بل قل له : المديح لك » ..

لم أهزأ من الأعمى ، ولاسخرت من القمىء ، ولا آذيت المقعد ، ولا عبثت بامرأة ، أو حاولت غواية أرملة ، ولاطردت فلاحا ، أو أقصيت راعيا ، ولا تهربت من دفع ضرائب جاء أوان دفعها ، ولاسرقت أو اغتصبت متاع جارى ..

كنت متواضعا وكتوما . أتجنب ذكر الألفاظ النابية ، ولا أتكبر بسبب مكانتى .

لم أدنس فمى بإهانة من سولت له نفسه توجيه الإهانة لى ، ولابصقت فى وجه أحد ، أو نلته بسوء ، أو تلفظت ضده بسباب ، وكنت أقابل كل إهانة بالتسامح ، فاكتسبت أعدائى ، وجعلت منهم أصدقاء . تعلمت ألا أكون وحيدا ، أسرفت فى استخدام الخدم والأعوان ، ليقفوا بجانبى فى أوقات الشدة . وتعلمت الحذر ، وألا أتصور الإخلاص فى أقرب الناس إلى ، حتى لو كانوا من أسرتى .

إن الإنسان لايستطيع أن يواجه الآخرين وهو وحيد .

السؤال السابع والعشرون

قال أوزوريس :

ـ هل تغاضيت عن سماع النصيحة التى تفيدك ، والحكمة التى تعنى بصالحك ؟

قال زاومخو :

دخلت إلى قاضى القضاة سبختى فى مقره ببهو « خا » العظيم . من

حوله آلاف السجلات الخاصة بوثائق الملكية وعقود تمليك الأراضى والعقارات وملفات الوصايا وسجلات الحدود ووثائق عقود الزواج .

لجأ « سرحات » زوج المرأة « دوات نفرة » إلى قاضى القضاء سبختى ، يتهمنى بإفساد زوجته ، وارتكاب الخطيئة معها .

ولم يكن ذلك - فى الحقيقة ، وكما سأروى لكم - هو ماحدث ..

لفق لى الرجل ادعاء ، بتحريض من أعدائى .

بدا الاتهام غريبا وقاسيا ، فلم أصدقه .

أحال سبختى دعوى الاتهام إلى قاضى المدينة .

لم أتأخر فى تلبية دعوة القاضى حين جاءنى الجنود ، لم أتعلل بمكانتى ، ولا بأنى أنوب عن الملك فى الإقليم ، حتى فى وظيفة القاضى .

لما مثلت أمامه ، كنت أظن أنه يجرى كل شىء وفق القانون ، وأنه يعطى لكل ذى حق حقه .

تحدث « سرحات » وتحدثت ، وأتى الرجل بشهود ليسوا من القرية ولا القرى المجاورة ، ولا التقيت بهم من قبل .

وياللمفاجأة القاسية ، فقد أصدر القاضى حكمه بقطع عضو التناسل للمعتدى ..

أخذنى الغضب ، فقلت :

- أيها القاضى الموقر : هل حكمت بالعدل ؟ .

رفع القاضى حاجبيه ، وقال :

- ماذا تظن أنى فعلت ؟

قلت :

- هذا الرجل من خدمى .

ظل القاضى فى دهشته :

- أعرف .

علا صوتى :

ـ هل تساوى بينى وبينه ؟

قال :

ـ مادمتما قد مثلتما أمامى ، فأنتما متساويان .

أشرت ـ بامتداد ذراعى ـ الى « سرحات » .

ـ انى اتهم هذا الخادم بأنه باعنى لأعدائى .

قال :

ـ ما دليلك ؟

قلت :

ـ عندما ينسى تكريمى له ويقاضينى أمامك ، فلابد أنه قد أنصت لتحريض أعدائى .

هز رأسه فى عدم تصديق :

ـ اتهام تعوزه الأدلة .

أضاف فى تأكيد :

ـ أنت تعلم أن الخصاء هو عقوبة من يغتصب المرأة الحرة .

صحت :

ـ أنا لم أغتصب هذه السيدة .

وامتزجت دهشتى بالغضب :

ـ كيف تعتبر اتصالى بزوجة فلاح فقير جريمة اغتصاب ؟

وأضفت فى غضبى :

ـ سأطلب من الملك إلغاء هذا الحكم .

قال :

ـ كلمة الملك يجب ألا تعلو كلمة العدل .

استطرد وهو يطوى أوراقه :

ـ كلمة العدل هى كلمة الله .

الميل إلى أحد المتخاصمين رجس عند الآلهة . وقد انحاز القاضى إلى خصمى بإنصاته إليه ، وسماعه لشكايته ، وقبوله الهدايا التى ذهب بها أعدائى إلى بيته .

قبل القاضى الهدايا ، وتأثر بالشهود ، وبتحريضات أعدائى ، فأصدر حكمه القاسى ضدى .

وشهق الجالسون لقسوة الحكم .

أصبحت رجلا وحيدا . خصمى الفقير ـ بتأييد أعدائى ـ لم يعد كذلك .

ساوى القاضى بين العظيم والوضيع . وحين استقبل الفلاح ، رحب بالانصات إلى ظلامته ، وشجعه على أن يفضى إليه بما حدث ، وماصوره خياله ..

لقد عينه جلالته ليسمع الشكاوى ، ويفصل بين المتخاصمين ، ويضرب على أيدى المجرمين واللصوص والقتلة ، ولكن هاهو ذا يتحالف مع هؤلاء جميعا . لايأبه بالحق ، ولا كيف يحافظ على اعتدال ميزانه .

ساءنى أن الذى يفرق فى مهنته بين الحق والباطل ، قد انحاز للباطل ، وباع ضميره لمن دفع المال .

نصب القاضى ليسمع الشكاوى ، ويفصل بين المتخاصمين ، ويضرب على يد السارق ، ويأمر بإعدام القاتل ، ولكنه أظهر المحاباة لمن حمل الهدية ، ولم يفصل بين المتقاضين دون محاباة ، انحاز لاحدهما بمقدار ما دفعه له أعدائى زيادة عن خصمى ،نصب ليكون سندا للمظلوم ، يحميه من طوفان الظالمين ، لكن أصبح هو نفسه كالفيضان الجارف .

لقد نبذت العدالة ، وأخذ الظلم مكانه فى قاعة المحكمة .

إن من يجلس لتنفيذ العدالة ، ثم يرتكب الزيف وعدم الصدق ويبعد عن الحق ، ويقضى بما يخالف القانون ، يرتكب جريمة كبرى ، يواجه بها عقوبة الموت .

وأنا لم أعاقب القاضى الذى ظلمنى ، ولا حرضت على عقابه . إنما تركته للآلهة تقضى فيه بحكمها الذى يستند إلى العدل وحده .

كان يجدر بى أن أقطع أنف القاضى وأذنيه . ذلك هو عقاب القاضى الذى يسىء استعمال ماخوله له جلالته من سلطات .

لم يكن الأمر يتطلب إلا شرح ماحدث لجلالة الملك ، فينفذ القانون .

لكننى احترمت اختيار جلالته . الإساءة إلى القاضى ـ بصرف النظر عن خطئه ـ هى إساءة إلى الملك نفسه . الرجل أحد قضاته ، ينفذ قوانينه وقراراته ، ويصدر أحكامه باسم ابن الآلهة .

رفضت تنفيذ حكم القاضى . ظللت رجلا كما ينبغى أن أظل .

ساعدنى أصدقائى من موظفى جلالته على ألا أعمل بالحكم الذى نطق به القاضى . حابى خادمى ومالأه ضدى ، فكان على ألا نصت لحكمه ، أو أعمل به ، وأفعل ما أرى أنه صواب ، وأنه حق وعدل .

السؤال الثامن والعشرون

قال أوزوريس :

ـ هل عرفت السحر الأسود ؟ وهل أذنت له بأن يحتل جسمك ، فيصبح الجسم بيتا لروح غير روحك ؟

قال زاومخو :

قيل إنى حاولت شراء تعاويذ سحرية ، مما يصنعه الكهنة ، كى أضمن القول عند محاكمتى فى العالم السفلى ، وأحصل على السعادة فى الحياة الآخرة

أنا لم أنكر ذلك ..

أليست الربة إيزيس هى العظيمة السحر ؟

حين تهيأت للرحيل ، رجوت الساحر باو رع أن يجعل ـ بطقوسه ـ من وجبة الطعام التى ترافقنى فى بيتى الأخير وجبة أبدية ، أعيش عليها دون أن تفسد .

وقبل أن أبدأ رحلتى إلى عالم الغرب ، تحصنت بتعاويذ أعدها لى الساحر باو رع : تعويذة لتناول الطعام فى دنيا الراحلين ، تعويذة لمنع أذى الثعابين والتماسيح ، تعويذة للخروج بسلام من البيت الطيب ، فلا يصاب جسمى بالتعفن ، تعويذة لتجنب العمل فى الأرض السفلية ، تنهض الأوشابتى بما تعهد به الآلهة لى ، وتهتف عند كل نداء : هأنذا .

زعم هيرا انى دفعت بالساحر « باو رع » فى المؤامرة حتى أتخلص من أفعاله الشريرة ضدى ، وكان بوسعه ـ لو استطاع ـ أن يتنبه لتدبيرى ، ويتخلص منه .

أنا لم أنكر ذلك .

ولكننى لم أستخدم السحر فى أذى الناس ، أو مضايقتهم ، أو السطو على مايملكون ، واجهت مؤامرات الأعداء ، وما كانوا يدبرون ، قدمت القرابين ، وتلوت الأدعية والرقى والتعاويذ ، وضوعت البخور بالمعانى المحددة ، حتى نال الأشرار جزاءهم .

وقيل إنى لجأت إلى الساحر « باو رع » يضع طلاسمه وتعاويذه فى نبات البردى ، تمتصها مياه النيل فى جريانها من الجنوب إلى البحر . يأكل الناس البردى ، ويشربون مياه النيل ، يصيبهم ما أودعه الساحر « باو رع » فى تعاويذه وطلاسمه ، يتبلدون فلا يعنيهم ان وفيتهم حقوقهم ، أو جريت عليهم بالظلم ، كأنهم ليسوا من العالم ، أو أن الخمر أثقلت رءوسهم فهم لايعون .

ياللتهمة الظالمة ، لم يلجأ الساحر « باو رع » إلى السحر الأسود . كان نبات البردى قد ذبل بالمرض الغريب ، لايورق حتى يضمحل ويذوى .

قلت لباو رع :

ـ أين تعاويذك ؟

تفحص ورقة البردى بأصابع متفهمة :

ـ النيل اله ، والسحر يخص البشر .

قلت :

ـ هل أترك المرض يلتهم أهم محاصيلى .

قال فى حيرته :

ـ سألجأ إلى المعبد ، وأخبرك بما يجب صنعه .

ورحل رع إلى الشاطىء الغربى ، ثم عاد فى موكبه الصباحى ، ثلاث مرات ، قبل أن يظهر الساحر « باو رع » على باب المعبد ، نال منه التعب ، فتثاقلت الكلمات فى فمه :

ـ لن يصيب المرض نباتك .

هتفت بالفرحة :

ـ هل ..

قاطعنى بصوته المتعب :

ـ لجأت إلى أسرار الآلهة ، فغاب المرض عن المياه والنبات .

عاد النبات إلى ازدهاره وتألقه ، امتلأت به المستنقعات . جرى النيل عذبا ، طيبا ، من عروق أصابع أوزوريس ، فبعثت الحياة ، وتجدد النبات ، وأكل منه البشر والحيوان والطير ، وازدهرت الطبيعة ، كأنها خلقت من جديد ، وتنسم الناس ـ بعد طول غياب ـ أريج الزهر ، واستمتعوا بالورود والرياحين .

قال لى أبى إنه بوسعى أن أحصل على كل نعم الحياة باستخدام الرقى الملائمة .

وحين مرض نختى ، لم يكن أمامى غير اللجوء إلى القوى الخفية كى تخلص طفلى البرىء من المرض ، ومن الحسد ، ومن سطوة أشباح الشر السوداء .

وبعد أن نجا طفلى الصغير من مكائد أعدائى ، دعوت الآلهة حتى تأكل سحرهم ، وتبتلع أرواحهم ، وترد إليهم المكائد التى انشغلوا بتدبيرها . أنا

لا أعرف السحر الأسود ، وأمقته .

كل من يلجأ إلى استخدامه فى أذى الآخرين ، عليه أن يواجه عقاب الآلهة ، وان كنت أعلم أن اشباح الشر السوداء تقبع فى أركان البيت المظلمة ، أو تتسلل من الأبواب المفتوحة عندما يخلد رع إلى الراحة فى الجبل الغربى .

علمنى الساحر « باو رع » كل الوسائل التى تتيح لى ضرب الشيطان ، واتقاء الأعين الشريرة ، وحماية عرش الاله ، وإبعاد الزواحف ، وطرد التماسيح ، وإقامة طقوس تجلى الآلهة داخل المعابد وخارجها . وعلمنى نظام الشمس والقمر ، وعلم سمات الحيوان ، وممارسة الشعائر ، وتقديم القرابين ، وأداء الأناشيد والصلوات ، وتنظيم المواكب والأعياد وحفظ الأدوات المقدسة .

وأجدت كتابة الرقاع الخاصة بالشفاء من الحمى ، ولدغ العقرب ، ومختلف الأمراض ، وأجدت ـ لإبراء الجسم من علله ـ مطاردة روح الشر ، وإجبارها على ترك الجسد ، باستخدام الرقى والتعاويذ والتمائم .

وضعت فى حجرات البيت مجموعات من العصى السحرية ، والتماثيل الصغيرة ، المصنوعة من شمع العسل ، والنصوص الدينية والرقى والتعاويذ والوصفات .

وكتبت الصيغة السحرية التى تحدد أسماء أعدائى ، وأسماء آبائهم ، حتى لايتعرض لأذى السحر شخص آخر .

وأمرت الفلاحين أن ينصبوا التماثيل التى تحاكى إلهنا المبجل أوزوريس فى حقول البردى ، ليطردوا الشياطين والأرواح المؤذية ، فلا تسبب الجدب والقحط .

كنت يقظا لكل ما يحدث حولى . لم أسمح لامرىء أن يكشف بطنى ولاظهرى ، ولا أن يوجه لى طعنة غادرة .

السؤال التاسع والعشرون

قال أوزوريس :

ـ هل رويت بحكمتك ظمأ المتعطشين إلى الصدق ؟

قال زاومخو :

الغنى لايتحيز لأنه ليس محتاجا . انه يصدر فى آرائه عن روية وتبصر ، فيخلو حكمه من التعسف والهوى .

كنت كريما مع الناس جيمعا . لم أبخل بنصيحة ولابود ، ولامحاصيل أو ماشية يحتاجونها .

لم أطرد مزارعا ، ولا أبعدت راعيا ، ولاقسوت على رئيس عمال لأنه لم يحسن توجيه عماله .

كنت ابنا للمسنين ، وأخا لمن هم في مثل سنى ، وأبا للصغار ، وزوجا للأرامل ، وراعيا للفقراء واليتامى . وجعلت موضعا فى مركبى لكل من أعجزته الحيلة عن العبور .

لم أحطم قرابين الآلهة فى المعابد ، انما قدمتها بنفسى ، وأوقفت عليها ليقدمها الكهنة الموقرون بأنفسهم ، ولم أرتكب ضررا ، ولاقدمت بالكلام أى شر منذ أن لفظنى رحم أمى إلى هذه الدنيا .

كنت أتذكر قول الساحر « باو رع » .

- أنى أستطيع أن أتحدث وأنبىء عن الغيب ، وأستطيع أن أفعل مافيه خير الانسان ، لكننى لا أملك السير فى طريق الشر .

وكنت أنظر الى الجبل الشرقى ، وأتساءل : أين الموضع الذى تشرق منه الشمس كل صباح ؟ .

لم أعنف أى انسان ، قلت الخير ، ولم أتقول السوء .. وكنت أعرف أن قوة المرء فى لسانه ، وأن الحديث الطيب أقوى من الحرب والقتال .

تعلمت - منذ حداثتى - أن أقدر خطواتى جيدا ، فلا أقدم على تصرف إلا إذا تصورت النتائج التى ينتهى إليها .

وتعلمت أن التحدث فى الأمور العامة يجب أن يقتصر على موظفى الملك لاسواهم .. أما الفلاحون وأرباب الحرف ، فإن أمامهم مايشغلهم .

وتعلمت أن الذى يخزن محاصيل غيره وأمواله ، إنما يسلبه إياها . مال الفقير حياته . ومن أخذ مال الفقير فقد أخذ حياته .

الحياة حق المسالم ، أما الموت فهو جزاء من يسعى لأذى الآخرين .

ألا بوجهى ، أنى اجتهدت ماوسعنى أن أبدد الكذب ، وأفرض كلمة الصدق ..

كان أهالى القرية يلجأون إلى ، يعرضون مشكلاتهم ، ويطلبون النصحية ، فأتحدث بالصدق ، ولا أحابى كبيرا على صغير ، ولا سريا على وضيع .

أصبحت النجم الهادئ لأبناء ونيس ، والقرى المجاورة ، يستمدون منى الحكمة ، ويحصلون على النصيحة التى لايشغلها سوى صالح الجميع .

كنت أتكلم بفمى ، وليس بتحريض من الآخرين .

كان جلالته يقدر سياستى ، وينصت إلى آرائى ، بتنفيذ معظمها ..

ظفرت برضاء جلالته ، وباحترام الوزير ورجال البلاط ، واعجاب أهالى القرى والمزارعين .

ناهضت الشر ، ووقفت فى وجه الظلم ، وسار المخطئون ـ بأوامرى ـ منكسى الرءوس .

السؤال الثلاثون

قال أوزوريس :

ـ هل جلبت الرضا لقلب أمك ، والشرف لبيت أبيك ؟

قال زاومخو :

كانت ولادتى عادية . الإله حورس ولد من مضاجعة والده الاله أوزوريس ـ بعد وفاته ـ لأمه المبجلة الربة ايزيس . أما أنا ، فلم يصحب مولدى غرائب ولا معجزات ، وان نشأت فوجدت التمائم معلقة فى عنقى ، والطلاسم على باب الكوخ الذى أمضيت فيه طفولتى .

تمنت أمى ـ قبل ولادتى ـ أن أكون فى قوة أسد ، ووداعة حمار ، ودهاء ثعلب ، لست أدرى إن كانت الآلهة قد استجابت لما تمنت أمى ، وإن

يسرت لى الآلهة أن أحيا دون متاعب حقيقية .

متى نمت مداركي واستطعت التمييز بين الأشياء ؟ صور ورؤى كثيرة ، تبدو فى ذهنى غامضة مشوشة ، لا أدرى أيها أسبق فى مقياس الزمن ، ولا أدرى كل تفصيلاتها .

كان أبى فلاحا فى أراضى حاكم الاقليم ، ادعى عليه بما لم يفعله ، فأبعده الى قرية ونيس التى أمضيت فيها حياتى كلها .

مع أن وظيفة أبى كانت متواضعة تماما . ثم أصبح ـ بعد أن غضب عليه هيرا ـ بلا وظيفة ، يقضى هو وأمى أيامهما فى صنع السلال والحبال والصناديق .. مع ذلك ، فقد حرص أبى على أن أتعلم القراءة والكتابة ، ولا أمضى حياتى جاهلا . وكل الى الآباء المربين تنشئتى وتعليمى . لم أفر من المدرسة ، ولا هجرت الكتابة ، ولا تعاليت على معلمى ، ولاتسكعت فى الطرقات .

وكنت أحمل معى إلى المدرسة ـ كل صباح ـ رغيفا من الخبز ، واناء من الجعة .

أذكر لعبى فى ساحة القرية بالدوارة وكرات الجلد المحشوة وكرات الخشب ، والتى صنعتها لى أمى من الجوارب القديمة ، وكانت تصنع لى أشكالا على هيئة تماسيح وأغنام وخنازير وقوارب وتوابيت وموميا‌وات . وكنت أشارك أطفال الجيران ألعابهم بعرائس الطمى والقش والبوص فى داخل الأزقة الموحلة .

وأذكر أنى كنت أساعد أمى فى أداء ما تطلبه منى فى عملها بالمنزل ، عندما تذهب الى السوق لتبيع ماربته من طيور ، أو ما صنعته من نبات البردى .

وكنت أصحب أبى عندما يخرج من الكوخ كل صباح ، يلف جسمه بمئزر من تحت السرة الى ما فوق الركبتين ، ويحمل ـ لى وله ـ أرغفة من الخبز ورءوس بصل ، وقطعا من السمك المقدد ، أجمع مايريده من الحطب وروث الماشية ، أو أصحب الماشية الى المراعى ، أو الى الترعة القريبة ، فلما طالت قامتى ، بعث بى ـ كما رويت ـ الى مكتب لأتعلم .

عملت بنصائح أبى .. لم أستسلم ـ ذات يوم ـ الى الهم والقلق

الشديدين وكنت من ذوى الحدة والتردد . باعد أبى بينى وبين رفقاء السوء ، حتى لا أضل السبيل ، وقال لى :

- لاتصادق الا من كانوا فى مثل مكانتك ؟

علمنى أبى كيف أذعن لمن هم أعلى مقاما . أتقرب اليهم بكل ما وسعنى .

نصحنى بتجنب الغش والخداع ، والتغاضى عن هفوات الناس وزلات السنتهم ، وأن أحرص على صداقتهم ، والتودد اليهم ، واظهار البشاشة فى وجوههم حين اللقيا . وأقيم العدل والاحسان على من هم أقل منزلة ، فلا أذكرهم بما أحسن اليهم ، ولايخالجنى شعور بالتباهى ..

وحين كنت صغيرا ، كنت أنظر - وأنا على المائدة - إلى الوعاء أمامى ، وأكتفى بما فيه . ووعيت على أبى وأمى وأخوتى وأقاربى ومن يزورون بيتنا ، وهم ينفذون تعاليم الآلهة ، فلم أجاوز ماكانوا يفعلون .

ولما اتصلت بى القوى الشريرة ، وحاولت كثيرا ، لم أستسلم - بيقينى الايمانى - لها .

كنت مدللا عند أمى ، أثيرا عند أبى ، حبيبا لدى أقاربى .

وقال لى أبى فور بلوغى : تزوج وأنت شاب ، حتى تنجب وترى أولادك رجالا .

أنظروا إذن ، لقد حاولت أن أرد إلى أمى كل مافعلته لى . أعطيتها الخبز بكثرة ، وحملتها كما حملتنى ، وحرصت على رضائها . فلم أغضبها حتى لا ترفع يديها الى السماء ، فتستجيب الآلهة لدعواتها ، وتؤذينى ..

وكنت عصا الشيخوخة التى توكأ عليها أبى فى أيامه الأخيرة . ألبى - فى صمت - أوامره ، أروح وأغدو وفق ما يطلب . ولم أخالف ماقرره فمه ، ويحدثنى ، فأطأطىء الرأس توقيرا .

كان أبى يقضى معظم أيامه وهو عار .. وكانت أمى تدير لنا الطعام بما يسكت بطوننا الجائعة . فلما أفاء على جلالته بنعمه ، حاولت أن

أعوض لهما تلك الأيام التى لاتنسى .

وعندما ارتحل أبواى الى الغرب ، بنيت لهما قبرا يليق بمقامهما ، أثثته بكل مايلزم ، وبالأطعمة والأشربة ، وأتيت بمواد جديدة ، ولم أحصل للمقبرة على شيء مما يملكه انسان .

وحين أصرت ميرية على موقفها ، ساعدها على ذلك تحريض مانيروس ونصائح أصدقائى الذين لم يعودوا كذلك ، وتفسير الكاهن لما رأيته فى النوم ، فإنى لجأت إلى أبى . أرسلت اليه حيث يقيم فى عالم الغرب . أدعوه للتدخل . والحفاظ على تماسك بيتى . يظهر لها فى نومها ، يؤنبها ، وينصحها . يدعوها الى إلقاء ماحشا به الآخرون أذنيها .

كنت قد حافظت على أبى فى حياته ، وبعد موته ، فلم أشك أنه كان سيقف الى جانبى ، ويدافع عن ارادتى .

ألا بوجهى ، انى أحببت أسماء أبوى ، وأجدادى ، وتمنيت أن يحب أبنائى اسمى ، ويبقون عليه .

السؤال الحادى والثلاثون

قال أوزوريس :

ـ هل كان الآلهة فى ضميرك أثناء رحلتك وتمنيت أن يهبوك الهداية والسلوك القويم .

قال زاومخو :

لقد أقمت بيتى بجانب المعبد كخادم يمجد سادته .

أخترق البيوت المتلاصقة والحارات الى المعبد . يفصله السور اللبنى العالى عن كل ما حوله ..

الفناء الفسيح ، بأعمدته التى تحاكى أزهار البردى ، تعلو جداره الرئيسى نقوش لزورق الإله فى موكبه الفخيم من الشرق الى الغرب .

لم أدخل المعبد غير طاهر ، ولاقلت باطلا في حرمه ، ولاتناولت أقداح نبيذ . وفعلت كل الطقوس التي يحتاجها الهي المقدس رع ، وفي داخلي يقين أن الآلهة تمد يدها إلى من يحبها ، وتمنح حمايتها لمن يدخلها في قلبه ..

حرصت على أن تحل بركة الآلهة على كل ما ينطق به لساني ، وما تمتد إليه يدي ، وما أقدم عليه من أفعال .

تعرفت إلى العاملين في المعبد : الكهنة المطهرين والحرفيين ومصممي الثياب والفخارين والطباخين ومنظفي الثياب والملاحين والحمالين والأطباء والمنشدين . وكنت أغبط هؤلاء الذين يسلكون سبيل رع في معبده ، ويسهرون في داره ، ينظمون الأعياد ، ويقدمون القرابين بلا انقطاع .

اعتدت أن أعطي للمعبد أول ثمرة من محصول البردي ، ينفق الكهنة الموقرون من ثمنه على رسالة المعبد المقدسة ، كما قدمت له الكثير من هبات الأرض ، والماشية ، وعمال السخرة .

قدمت للآلهة قرابين من الثيران ، وذبحت لها الطير من كل الأنواع ، وفتحت الأجران على محاصيل فات أوان حصادها . وكنت أحرص على أن يتولى الكاهن المطهر فحص طهارة الحيوان بنفسه ، لايتركها لسواه ، وظيفته التي نذر لها حياته ، ووافقت على ذلك الآلهة ، يتفحص الذبيحة قبل تقديمها كقربان . يرفع رأسه ليعلن ما إذا كانت طاهرة أم لا . فإذا تثبت من طهارتها ، قسمت إلى قطع صغيرة ، ووضعت على مائدة القرابين .

أهديت إلى خزانة المعبد قلائد وعقودا يفيد منها الكهنة المحترمون في أداء الشعائر ، وأهديت مجموعات من القرابين الرمزية كالعين الواقية « أوجات » والساعة المائية والصلاصل والصوالج والاساور ، والمواد الذهبية والفضية المطعمة باللازورد ، وعجائن المينا المختلفة الألوان .

رتلت الأدعية ، وأنشدت التراتيم التي تسبح بمجد الآلهة ، ومنحت الهبات باسمها . أرقت القرابين السائلة كي أظفر بعطفها . أقمت المآدب الجنائزية لمن في معيتها من أرواح ، وأضأت الشموع ، وقدمت أواني الذهب والفضة وكميات الفاكهة والخضروات والخبز الجيد والحيوان والطير من جميع الأنواع ، وأهديت الى كبير الكهنة تابوتا مزخرفا بالفضة والذهب

واللازورد والدهنج والأحجار الكريمة .

ومع أن شواغلى كانت تحول بينى وبين التردد على المعبد بصورة منتظمة ، فانى كنت أحرص على إقامة الشعائر ، وتقديم القرابين . وقد أترك ذلك لأتباعى ، يقومون به على خير وجه ، يسعون إلى المعبد كل صباح ، يحملون الفطائر المستديرة ، وأرغفة الخبز الأبيض ، والآنية المملوءة بالجعة ، يتسلمها خدم الإله والكهنة المتطهرون ، وان أعطيت سمعى لأنشودة النهار الوليد ، توقظ الإله المبجل .

شاركت فى مراسيم الصلاة : تقديم القرابين والنذور ، وسكب الماء ، وحرق البخور ، ورفع الأطعمة ، وعمليات التطهير .

لم يكن يسمح للآخرين بالدخول إلا إلى الفناء المفتوح ، يصبون الماء للإله ، ويرددون الصلاة ، فلا يتقدمون أبعد من هذا .

أسر إلى كبير الكهنة ـ يوما ـ بمعلومات تفوق كل كلام البشر ، وأذن لى بدخول قدس الأقداس ، هذه الغرفة الضيقة ، يسودها الظلام ، يمثل فيها الآلهة ، فلا يراهم أحد .

لم يكن مسموحا بغير الوصول الى الفناء المفتوح ، يصب الماء للاله ، وتردد الصلوات والأدعية .

لم أكن قبل ذلك قد لامست امرأتى ، ولا أكلت ـ لأشهر متوالية ـ لحم الماشية أو السمك ، وكنت قد اغتسلت جيدا .

أيقظ الكهنة الإله بأنشودة الصباح . ثم انشغلوا بغسل الإله ، وتضميخه بالعطور والبخور ، والباسه ثيابه . وتزويده بتيجانه . وقدموا له أولى وجبات اليوم الجديد ، ذبيحة الصباح .

وقفت فى فناء المعبد . تفصل خطوات بينى وبين المذبح الذى يتوسط المكان . أمامى الكاهن ، تمازجت فى وجهه ظلال رمادية ، وضوء يتسلل من النوافذ الصغيرة المرتفعة تحت السقف . من حولنا حجرات تضم ثروات الإله وامدادات الطعام والملابس والعطور .

الكاهن ختم الصلصال ، الذى وضع فى الليلة الماضية ، كى لايدخل الى قدس الأقداس أحد . عمق اندفاع المزاليج من الصمت السادر حولنا .

دفع الباب برفق ، فانفرجت ضلفتاه ، وظهر الإله في ضوء السراج الخافت .

كنت قد تخلصت من كل الشوائب ، وخلعت ثيابي ، وتدهنت كما يتطهر حورس ، ووقفت أمام الإله في قدس الأقداس ، والخوف يقتلني من أن يرفض إحاطتي برحمته .

رحت أقلد الكاهن فيما يفعل . دار بالبخور حتى تضوع المكان برائحته تماما . ثم اقترب من المحراب وفتحه ، وحيا الإله بالركوع بضع مرات . ثم بتلاوة الأدعية والأناشيد . ثم وضع أمام الإله كل ما يحتاجه من أنواع الأطعمة والشراب : الخبز والأوز وأفخاذ البقر والنبيذ والماء . حتى الزهور التي يجب أن يكون لها موضع في كل مائدة ..

كان ذلك في فصل الصيف . بعد فصل الفيضان ، وقبل فصل بذر البذور .

لم أكشف عما وقعت عليه عيناي في المعبد مما يجب أن يكون من أسراره . وتكرر دخولي الى قدس الأقداس . أعبر سلسلة من الأبواب ، يذوي فيها الضوء ، وتنخفض الأسقف ، حتى تحتويني الظلمة تماما ، فلا أتبين ـ في الغرفة الصغيرة ـ سوى ملامح باهتة للتمثال المقدس في ضوء السراج القائم بجواره .

كان الشرف الذي نلته بالوقوف أمام الإله ، أقوى مما تستطيع نفسي الضعيفة احتماله . وحين أردت التعبير عن فرحي وزهوي ، أمرت ، فشيد البناة صرحا جليلا ، داخليا ، أمام قدس الأقداس : وصنع النجارون بابا كبيرا من خشب الأرز الجديد ، مكفتا بالذهب ، ومركبا عليه نحاس أسود حقيقي .

السؤال الثاني والثلاثون

قال أوزوريس :

ـ هل احترمت كهنة المعبد الذين نذروا حياتهم لخدمة الآلهة ؟

قال زاومخو :

كنت أقدم الى المعبد كميات كبيرة من الخبز الجيد ، وأنواع الخبز

الأخرى ، ومن اللحم وزيت الزيتون والبخور والنبيذ والعسل والفاكهة .

لم يكن الاله يأكل ماقدم من أطعمة وأشربة . إنما تقدم القرابين الى حيث تكمن الروح ، ثم ترد الى بيوت الكهنة ، يشبعون بعد أن شبعت روح الاله .

ضاعف لى الكاهن الموقر أخطار العالم السفلى . لانجاة لى مهما تسربلت بالنقاء . قال ان التعاويذ وحدها سبيل دخولى الى الأبدية ، تمنع فقدان فمى أو رأسى أو قلبى ، تساعدنى على تذكر اسمى ، وعلى الأكل والشراب والتنفس ، تحجب الثعابين والوحوش المؤذية . وحين أثقلت الخمر - ذات ليلة رأسه ، نصحنى ألا أتوقف اطلاقا عن الشرب والأكل والنشوة ، وممارسة الحب ، واللهو فى أيام الأعياد .

كان الكاهن دائم التحدث فى معرفته الأكيدة بأسرار السماء والأرض والعالم السفلى . وكنت أصدقه فيما يقوله ، وأعجب بحرصه على ارتداء ثوب الكتان ، فالثياب الصوفية تمقتها الآلهة - واتخاذه نعلين من البردى . وألفت سيره - أحيانا - حافى القدمين .

ثم لاحظت - بالذهول - أن الكاهن يدخل المعبد غير مطهر ، ويؤدى الشعائر على هواه . ينطق بالباطل فى حرمه ، يتفوه بالكذب ، يرتاد - فى أجازته - أماكن النساء ، يختصر الخدمات الدينية ، ينفذ أقلها ، ويهمل اكثرها ، لايقدر أهمية النصوص ، لايشغله ان طال الوقت أو قصر فى الطقوس الدينية ، ذات المواعيد المحددة - وكان يؤدى الشعائر كما يهوى ..

وأخبرنى خادمى إيمسخ أن القرابين تذهب - أحيانا - إلى بيت الكاهن الأكبر وبيوت الكهنة ، دون أن تجرى لها الطقوس ، وتتلى الأناشيد ، ويفتح لها ختم الصلصال الى قدس الأقداس . كانوا يحيون من مئونة الاله ، قبل أن تدخل المذبح ، وتخرج منه ، بعد أن يستمتع بها الاله .

وقدم خدمى قرابين الثيران للآلهة ، فوضعها الكاهن فى مزرعته ، وقدم الأوز بدلا منها .

قلت :

- لماذا يبيع المعبد تماثيل الأوشابتى ؟

قال :

ـ لأنها من طقوس الآخرة .

قلت :

ـ فهل يمكن للفخارين بيعها ؟ .

أوقف تحرك المقبرة .

ـ وما عمل المعابد اذن ؟

قلت :

ـ أثمانها تشق على الفقراء .

هز المبخرة فى الهواء :

ـ لا ضير إن عملوا فى حقول الآخرة .

تحرك الفضول فى داخلى :

ـ القرابين والأوقاف وأثمان الأوشابتى . أين يذهب ذلك كله ؟

أخلى للضيق وجهه :

ـ هذه مخصصات تنفق على إله المعبد ، وعلى كهنته والعاملين فيه .

عرفت أن الكاهن الأكبر يأخذ لبيته من خزائن غلال الاله .

واتتنى جرأتى . انتظرت حتى أزال الشعر من جسمه تماما . وتخلص من شعر رموشه وحواجبه ، وغادر الحمام منتعشا :

ـ أتيت بالطعام وأنت تأكله .

قال الكاهن بهدوء :

ـ كل ما يؤتى الى الاله هو دخل لنا .

استطرد :

ـ هذه هى تقاليد الكهانة منذ القديم .

وفاجأني بالقول :

ـ لا تأت بقرابين ، فلم تعد الآلهة تتقبل قرابينك .

حظر دخولي المعبد ، ووشى بي عند الملك والأشراف وعند الناس ، حتى أكون منبوذا على وجه الأرض . ودعا الالهة لتنزع خبزى وطعامى وأيامى الهانئة .

كنت أوقره لأنه يدخل قدس الأقداس . يعرف كل أسرار الاله ، يقدم له القرابين بنفسه ، يطمئن الى مايريد .

ألا بوجهى ، انى كنت أحسب الكهنة منزهين عن خطايا البشر ، فعرفت ـ للمفاجأة ـ أنهم أسوأ من الجميع .

صار الزمان غريبا . الكهنة يؤدون دور اللصوص . فيأكلون خبز القرابين .

رويت للملك أفعال الكاهن الأكبر .

أمر جلالته ، فخلع الكاهن من المعبد ، وطرد من جميع وظائفه ، وحرم دخول أبنائه ، وأبناء أبنائه ، الى بيت الآلهة ، ونزع منه خبزه وطعامه واللحم المكرس له ، وأسقطت رواتبه ، ومحى اسمه ، فلا يذكره أحد ، كأنه لم يكن .

السؤال الثالث والثلاثون

قال أوزوريس :

ـ هل استخدمت قوتك فى نصرة الحق والعدل ، والوقوف بجانب كل مضىء ؟

قال زاومخو :

جاء زمان قيل فيه ان حكم البلاد لم يعد للملك الذى أقسمنا له يمين الولاء ، ولا للموظفين الذين يعملون فى خدمته .

استولى على الحكم قوم بلا أصل محدد .. تدفقوا من مناطق مجهولة . هبطت جماعاتهم كالجراد . دمروا كل مالقوا فى طريقهم ، انشغلوا بالسلب والنهب ، وأخذوا من الفلاحين ماشيتهم التى تحرث الأرض ، وترعى فيها ،

وحرقوا المدن ، وهدموا معابد الآلهة ، وأوقعوا بالناس كل أنواع الظلم .

فلما استقرت لهم الأمور ، اعتبر كل منهم نفسه ملكا ، وتحولت البلاد الى امارات واقطاعيات ، وصار القتل لأتفه الأسباب .

ارتعدت الأرض ، والتفت القرى بالفزع ، وخاف الناس . بدوا جميعا فى ذعر ، واختفوا في مستنقعات الدلتا ، وفروا الى المعابد ، طالبين حماية الآلهة ، ولكن الخراب عم جميع المعابد ، وسقطت محاريبها المقدسة .

نبذت العدالة وحل الظلم مكانها فى قاعات العدل ، وانتهكت تعاليم الآلهة ، وصارت البلاد في هم ، والحزن فى كل مكان ، والناس يقترفون الخطايا ، ومجموعات القوانين ألقيت على الأرض ، والأقدام تطؤها ، وديست العيدان الخضراء ، وامتلأ النهر بالتماسيح ، لاينزل الملاحون ولا الصيادون اليه حتى لاتفتك بهم .

شرب ساكنو الرمال من مياه النيل ، واسترخوا ـ فى تكاسل ـ على ضفتيه ، وأكلوا من النبات وثمار الاشجار ، وانطلقوا فى مرح لأنهم لم يواجهوا من يطردهم بعيدا .

غابت الفرحة عن الوجوه ، والذى يأكل اليوم ، لايدرى إن كان سيتاح له ذلك غدا . نسى رحمة رع العظيم ، وعطفه على كل مخلوقاته ، ومن تشرق عليهم شمسه الساطعة .

لم أعد أنام ولا أصحو ولا أمارس حياتى ، الا اذا كان قوسى بصحبتى ، أدافع به ضد الخطر ان أعلن عن نيته .

وعندما أوشك اليأس أن يخنقنى بيديه القاسيتين ، أتى الاله سريعا ، وأخذ بيدى ، وأعطانى القوة ، حتى أصبحت قوتى تعادل قوة آلاف الرجال ..

رأيت فى الحلم ، كأنما تمثال الاله بتاح يقف أمامى . وقال وهو يشهر سيفا : خذه واطرد الخوف من نفسك !

وصحوت ـ ذات ليلة ـ على وقع أقدام هامسة تقترب من غرفتى .. نفضت النوم ، وتناولت سلاحى القريب .

قاومت احساسى بالوحدة ، توهمت انى اذا استغثت ، ربما اندفعوا

بالمفاجأة ، فبادروا الى ما أتوا من أجله .

عندما تناهى صليل الأسلحة بالقرب منى ، ولمحت التماعها ، تأهبت للعراك ، فردت قوسى ، وأطلقت سهامى ، وشحذت رمحى ، وتقدمت وبداخلى ثقة ، انى سأتغلب على المتسللين .

تملكتنى الثورة ، وصرت كفهد جنوبى . ألقيت برمح فى يدى ، استقر فى جسد رئيسهم . أطلق آهة ألم ، ثم سقط صريعا .

فر أعوانه مذعورين ، وتناثروا فى جوف الصحراء .

أوفد الملك عشرات من جنوده لمناصرتى فى طرد الأقدام الغريبة .

قضى الرماة من الجنود أياما متوالية فى اهلاك الأعداء .. ثم تلقفوهم بسيوفهم بعد ذلك . ذبحوا وسلخت جلودهم ، وصلمت آذانهم ، وجدعت أنوفهم ، وسجنوا .

قدمت مافعلت الى الملك ، فأصدر أوامره ـ فرحا ـ بأن يهدأ الناس ، يحيون فى الطمأنينة والسلام ، فالهاربون يعودون الى بيوتهم ، والمختبئون بوسعهم أن يظهروا ، ومن قاسوا الجوع ، يأكلون خبزهم فى سلام ، يشربون الماء دون خشية من تلفت ، والعراة يرتدون مايغطى أجسامهم ، أما الأسرى ، فيطلق سراحهم فى جميع البلاد .

قدم سكان البلاد المجاورة ، يوجهون المديح لجلالته ، سيد الأرضين ، ويقبلون الأرض أمام الاله الطيب ، ويمجدون انتصاراته ، وجزيتهم فوق صدورهم ، يطلبون أن تمنح لهم أنفاس الحياة .

أصبح الفرعون سيدا للأرض كلها ، ولم يعد له معارض .

حل بالبلاد فرح عظيم . وتحدث الناس عن الانتصارات التى تحققت فى بلاد جلالته .

لم يعد فى قلوب الناس خوف . هجروا القلاع ، وأعادوا فتح الآبار ، وعادوا الى التسكع تحت شرفات الأسوار ليستظلوا من حرارة الشمس ، والقطعان فى الحقول لاتحتاج الى حماية الراعى ، والجنود يذهبون الى ذويهم فى الأوقات التى يريدونها ، واختفت صيحات الليل : قف .. أحدهم

قادم .. أحدهم يتحدث بلغة أجنبية ، وتعالت أغنيات الناس بالبهجة والفرح ، واختفت من الصدور تنهدات الأسى ، وحصد الفلاحون مازرعوه ، والمرأة ـ بنقابها على راسها ـ تستطيع أن تذهب الى أبعد مكان تريد الذهاب اليه ، دون أن يعترض طريقها الأشرار .

السؤال الرابع والثلاثون

قال أوزوريس :

ـ هل خنت الأمانة ، فاعتديت على عرض صديقك أو جارك ؟

قال زاو مخو :

عندما قالت لى "دوات نفرة" "زوجة الفلاح "سرحات" :

ـ إن زوجى ـ ياسيدى ـ مريض ، وليس لنا ابناء ..

ثم وهى تنهنه :

ـ أخاف ـ ياسيدى ـ أن أنجب منه أولادا بمثل ضعفه ..

وهمس صوتها بتأدب واضح :

ـ هل تهبنى ـ ياسيدى ـ ولدا فى مثل قوتك ؟

أظهرت الدهشة بما وسعنى : كيف تسول المرأة لنفسها خيانة زوجها ؟

كيف تحرضنى على ارتكاب الفاحشة ؟ وهل نسيت النهاية التى تترصد لنا فى العالم السفلى . والأسئلة التى يجب أن نرد عليها بكل الصدق ؟

لكن المرأة ألحت ، وغلبها النشيج ، فبكت .

بدا لى من الأمر ماكنت أجهله ، وتصورت ان الآلهة لن يغضبها ان أنا ساعدت المرأة ـ بقلب متفهم ـ على تحقيق ماتطلب . وهبتها نطفتى التى هى هبة الآلهة للبائسين أمثالى .

كنت أركب عربتى ، بيدى السوط الذهبى المقبض . أحث الجياد على السير ، والعبيد فى الأمام يفسحون لى الطريق . أذهب الى « بى رمسيس » والى المدن والقرى المجاورة ، وأعود .

وحين كنت ألتقى بها ، فى ذهابى الى البيت ، وعودتى منه ، لم تكن تبادلنى النظرات ، ولم أكن ـ من ناحيتى ـ أوجه اليها نظرة ما ، ولا أظهر أنى أعرفها .

لم أدعها ، وانما أتت لى بنفسها ..
كانت ترتدى فستاناً ضيقاً للغاية . يمتد طوله إلى الكعبين ، له أكمام ضيقة ، وفتحتان عند العنق ، واحدة من الأمام ، والثانية من الخلف . وكانت يداها وقدماها مخضبتين بالحناء ، وصبغت شعرها بالحناء كذلك ، ولونت جفنيها بالكحل الأخضر ، وزججت حواجبها بالكحل الأسود ، وزينت رسغها بخلاخل فضية . بدت امرأة كاملة ليس لها مثيل . وكانت نسائم الشمال تهب منعشة ..

ادعت المرأة لزوجها انها رفضت غوايتى ، وأنها غالبتنى وغالبتها ، فقهرتها ، وقضيت وطرى ..
ولم يكن ذلك صحيحاً ..

انى أعرف أن الزنا لحظة متعة قصيرة ، تضيع كالحلم ، ثم لا يبقى الا الندم ، والخوف من الحساب عندما يمثل الإنسان فى حضرة الآلهة ..
يالسوء اتهامها أنها قاومت اغتصابى ، فسقط الشعر المستعار من رأسى ..
لم تكن المرأة أجمل من زوجتى ، فأقع فى هواها . لكنها أسرفت فيما طلبته ، ومازجت طلبها بدموع حقيقية ، وسقط شعرى المستعار لأنى حين أقبلت عليها ـ بارادتها الخالصة ـ أمسكت به ، ليدنو وجهى من وجهها ، فأقبلها . لكننى لم أفعل إلا أن وضعت فى أحشائها البذرة التى مازج توسلاتها بكاء حتى أهبها لها .

لم أكن فظاً ولا عنيفاً ، ولا أجبرتها على مضاجعتى . وحين عانقتها ، فقد كان ذلك فى كوخ الحارس ، أول المزرعة . لم أكن رأيتها من قبل ، ولادلنى عليها أحد خدمى ، ولم أذهب إليها بنفسى ، لكنها هى التى سعت إلىّ بنفسها ، تستأذن فيما طلبت ، وتلح ، وتستعطف ، وتترك الدموع خيوط مطر على خديها ، حتى أوافقها ..

السؤال الخامس والثلاثون

قال أوزوريس :

- هل كنت سيفاً باتراً فى جيش الاله حورس ؟ .

قال زاو مخو :

ان جلالته هو ابن الآلهة الموقر ..

خالفت ما كان متوارثاً فى عائلتى . فأمرت أكبر أبنائى أن يصبح جندياً فى جيش الملك ، واحداً من موظفيه ، يحظى بهبات الفرعون ورتبه وأوسمته ..

الزراعة هى حرفة أبى ، وأجدادى من قبله . الشخص الذى يعرف حرفة ما ، عليه ألا يتجه إلى حرفة سواها ، فتتواصل بها أجيال الأسرة .

وحين أشار الكاهن بأن أتجه بالشاب إلى مهنة الكتابة ، رفضت . وجدت فى عمله بجيش جلالته شرفاً لا يعادله عمل آخر ..

كنت موقنا بأن الجندى لابد أن يكون أسعد حالاً من الكاتب . وكنت أعلم بمكانة مهنة الجندية بين وظائف الدولة ، بما أولاه لها الملك من اهتمام ، وما يغدقه على ضباطه وجنوده من الرتب والنياشين والاقطاعيات ..

قالت لى ميرية فى تحذيراتها :

- أتدرى أيها الرجل ماذا يعانى الجندى فى حياته ؟ .. انه يسجن فى معسكره ، فلا يكاد يغادره ، وتمريناته قاسية حتى لتفقده حياته . واذا شارك فى المعارك ، فانه يكون عرضة للجروح والاصابات القاسية ، فيقضى بقية عمره مقعداً بلا حول ولا قوة . فإذا مات ، ربما حاسبته الآلهة لأنه قتل غيره ! ..

قلت لميرية بثقة :

- ان المرء الذى يقوم بأعمال البطولة لا تمحى ذكراه أبداً من هذه الأرض ..

وقلت :

- أن جنود الملك هم الطبقة الوحيدة - فيما عدا الكهنة - الذين يتمتعون بامتيازات ..

وعلا صوتى مؤكداً :

ـ إن من يلتحق بجيش جلالته يحصل على الكثير من الأوسمة والألقاب ..

كنت أستطيع أن أجعل من نختى كاتباً . فالكتابة أرقى بكثير من الجندية . لكننى أزمعت ـ قبل أن ترى عينا أكبر أبنائى النور ـ أن يكون خادماً لابن الآلهة ، يدافع عن إراداته وسلطاته وأوامره وأراضيه . لم أنصت إلى تحذيرات ميرية بالتعاسة التى يحياها الجندى ، فهو لا يستقر فى مكان ، وليس له بيت ، ولا يفرق فى عمله بين الليل والنهار ، وحياته فى خطر دائم .

طالت وقفتى على باب جلالته ، قبل أن يأذن لى بالمثول فى حضرته المقدسة ..

قلت وأنا أغالب ارتباكى ، وأحرص فلا يبهرنى ضياء وجهه :

ـ هل يأذن لى مولاى أن ألقى تحت قدميه بقطعة منى ، لتبذل نفسها دفاعا عنه .

أضفت للتساؤل فى أشعة الضياء المنبعثة من عينيه :

ـ هذا نختى ، أكبر أبنائى . ليتكم تأذنون له بالعمل ضمن جنود ابن الآلهة .

كانت فرحتى طاغية حين هز الملك رأسه بما يعنى الموافقة . عدت إلى ونيس أدفع ثورى إلى الاسراع ، لأبلغ نختى وميرية وأهل القرية بالشرف الذى أسبغه جلالته على أسرتى .

صحبت نختى بنفسى إلى الثكنات الملحقة بقصر جلالته . تطهر بالقسم المقدس : «لن أعارض أوامر الملك ، ولا أقاوم رغباته ، ولا أقوم بعمل عدائى ضده . سأنفذ أوامر الملك ولا أعصى مطالبه» . تدرب على الرماية بالقوس والنشاب واستخدام بلطة الحرب والدبوس الضخم والحربة والدرع . كما تدرب على المصارعة والكر والفر . عرف جميع فنون القتال ، ولم يكن هناك من يماثله فى ساحة الحرب . وأجاد قيادة الخيل ، ولم يلحق به أحد فى سباق الجرى ، ولا استطاع أن يشد قوسه مثلما كان يفعل . وكان يغطس فى مياه النيل دون خوف من التماسيح ..

أقطعه الملك أراضى متاخمة للصحراء ، يشارك فى التدريبات العسكرية ، وفى صد غارات البدو ، وخاض المعارك على رأس جنده ، وحارب بصورة لا تصدق ، وشهد جلالته بشجاعته .

جعله الملك على رأس جنوده . آلاف من المشاة وحملة السهام والأقواس وراكبى العربات الحربية ورجال البحرية . وقال له : إذا حاربت من أجلى ، فأنت تحارب من أجل بلادك .

وحين تجرأت البلاد الأجنبية ، ولم تأبه بتهديدات رسل جلالته ، اعتبرتها طبلاً أجوف ، فأهملتها .. انقض نختى بجنوده على الأعداء ، كما يسرى اللهب فى العشب اليابس . صاروا يرفرفون كما يرفرف الطير فى الشباك ، ويسقطون تحت نعلى جلالته . حطم أرض الأعداء ، وهدم حصونهم ، وقطع تينهم وكرمهم ، وشارك بذبح العشرات من جنودهم ، والقبض على جميع الأسرى الأحياء .

كسر نختى ظهر الأعداء إلى الأبد . دمرهم كأنهم لم يوجدوا أبداً ، ووسع الحدود إلى أبعد مما فعله آباؤه ، وخلد اسم الفرعون فى البلاد النائية التى لم يسمع بها أحد ، وعاد على رأس جنوده بسلام ، من خلفه الأسرى بلحاهم وشعورهم الطويلة . نكسوا رءوسهم ، ونطق الألم فى وجوههم ، يسيرون ببطء ، تصل بينهم سلاسل حديدية ، وفى رقابهم حبال ، وربطت أيديهم خلف الظهور . ثم سيقوا ـ فيما بعد ـ إلى قطع الحجر فى المحاجر .

فى آخر الموكب ، دواب محملة بالبخور والأبنوس والحبوب والعاج وعصى الرماية ، وفهدان صنع لهما نختى بيتاً صغيراً ، قيدهما فيه بسلاسل ..

أمر جلالته . فأعدم ستة من قادة العدو فى بداية الطريق إلى القصر ، وعلقت رءوسهم القبيحة على الأشجار ، ونكل بستة آخرين أمام باب القصر الرئيسى حتى أصبحوا جيفا تدوسها الأقدام . أما من ظل على قيد الحياة من جنود الأعداء ، فقد ختمهم الكتبة بخاتم يحمل اسم الفرعون ، فأصبحوا من عبيده ..

استولى جيش جلالته على بساتين ملأى بالفواكه ، وآلاف الدنان

المفعمة بالأنبذة ، واهراء كدست بها الحبوب بعد درسها . استولى الجيش من كل ذلك على مازاد على حاجته ، وثمل أفراده بالنصر ، وعطروا أجسامهم بالزيت كل يوم ، ومضت بنا الأيام التالية كأنها أعياد ..

حل بالمدن فرح عظيم ، وتحدث الناس عن الانتصارات التى حققها جيش الملك .

عاد نختى بالكثير من الجزى والهدايا والمغانم والخيرات ، ولم تعد هناك بلاد تستطيع أن تقاوم دهاءه ولا جنوده ولا أسلحته ..

قدره جلالته حق قدره . منحه منزلاً جميلاً على ضفة النهر ، تحيط به حديقة واسعة ، وتظلله أشجار من نخيل ، وأهداه خدماً وقطعانا من الماشية ، وقلده ـ فى عنقه ـ أسداً من الذهب ..

جعله الملك يختار لنفسه مساحة من أفضل الأراضى ، بالقرب من «بى رمسيس» ، لا تنقطع عنها مياه النيل ، وأشجارها وافرة الثمار ، وحقولها مغطاة بالمحاصيل ، وترعى فيها الماشية .

تتبع نختى جلالته فى كل رحلاته ، لم ينفصل عنه ، على الماء ، وعلى الأرض ، وفى داخل الحدود ، وخارجها .

لم يتعرض طيلة عمله فى خدمة جلالته لأى عقاب أو لوم .

السؤال السادس والثلاثون

قال أوزوريس :
ـ هل أفلحت فى أن تكون قيداً على حرية أحد ، أو سلبها منه ؟
قال زاو مخو :
كنت «سارو» قريتى .
لم أتصور أنى أحيا فى واحة أو خيمة فى صحراء ، ولا انشغلت بمشكلاتى الخاصة . وعيت ظروف الناس وأحوالهم . لم أقل ـ ذات يوم ـ : هذا شىء يخصنى . انما حاولت الفهم والمتابعة والاهتمام .

أوكل لى جلالته أمر تدبير الحياة فى القرية . الأمن والقضاء وتحصيل الضرائب وتحديد مواعيد الرى والحاق الشبان بجيش الملك . فلما لقى

«هيرا» جزاءه ، أصبحت مسئولاً عن قريتى ، وقرى الأقليم كله ، وان لم أعين لذلك بمرسوم صريح ، ولم يهبنى جلالته لقب «عج مر» الذى كان يحظى به حاكم الاقليم ، مع انى توليت ـ مثله تماماً ـ أمر الاشراف على الرى والزراعة وحفر القنوات والترع .

القرية تقع بين النيل وكثبان الرمال . المساحات الخضراء تشمل الوادى إلى نهاية الأفق . من بعيد تتجاور آجام النخيل وبيوت الفلاحين الطينية ، تعلوها المرتفعات الصحراوية .
الطريق ـ بموازاة النيل ـ تخترق القرية من أولها إلى بدء الخلاء . تتقاطع مع الشوارع الأخرى ، وتفضى إلى شاطىء النهر ، وإلى القوارب التى تعبر النهر إلى مدينة الموتى .

أزلت الحائط العالى الذى كان قائماً قبل أن أصبح سيد القرية . ساءنى أن تقسم القرية إلى منطقتين ، واحدة للأغنياء ، وثانية للفقراء ..

لم يعد يتردد على القرية من ألفت رؤيتهم فى سنوات سابقة : الكتبة والمساحون والموظفون ورجال الشرطة . أعفانى الملك المبجل من أسئلتهم وإلحاحهم ..

وعندما فرد الكاتب أوراقه ، وبدأ فى احصاء ما أمتلكه من أراض ومحاصيل ، قاطعته بإشارة من يدى :
ـ هذه مسئوليتى ..
قال الرجل بدهشة مفتعلة :
ـ فماذا عن الضرائب التى تخضع لها أراضيك ؟ .
علا صوتى بالغضب :
ـ أن كل ما بالاقليم يخضع لكلمتى انى أنا المسئول الوحيد عن قرى الأقليم أمام جلالته .

قال موضحا :
ـ حتى حاكم الاقليم كان يخضع للضرائب ..
قلت :
ـ ذلك زمان مضى .. فأنا المسئول عن تحصيل الضرائب وكل شىء ..
أدنى ورقة البردى من وجهى :

ـ والضرائب المطلوبة منك ؟
رفعت صوتى بالغضب :

ـ أيها الرجل .. لاتناقشنى فى السلطة المخولة لى من جلالته ، ولا تعد إلى هنا ..

أمرت جنود الشرطة بألا يجلسوا ـ كما كان الحال فى السابق ـ متكاسلين فى استرخاء ، يتسامرون ولا يفعلون شيئاً . ساعدهم أتباعى ، فهم يؤدون ـ أحياناً ـ وظائف الشرطة ، يلقون القبض على المتعاركين والمتخاصمين والمشبوهين والذين بلا مأوى ، يصحبونهم إلى بيتى . أنصت ، وأقلب الأمر جيداً ، ثم أوقع الغرامة المناسبة ، أو أشدد على أتباعى بالنفى خارج القرية . من يرتكب خطيئة القتل ، فانى أبلغ كبار رجال جلالته ..

كنت أقضى غالب وقتى متجولاً على قدمى ، فى مزرعتى ، أو داخل القرية . جالساً على محفة يحملها أتباعى ، أو مسترخياً فى قارب يتهادى فى اتجاه الشمال . أفتش بنفسى عن كل شىء . أصلح الخطأ إن وجد ، وأعاقب على المياه القذرة أمام البيوت ، والقمامة ، والفضلات المؤذية ، وأنظر فى دعاوى عقود الايجارات وتقسيم الملكيات والمبيعات والوصايا ، وأتأكد من أن سجل الأراضى وسجل الايجارات يؤديان واجباتهما على أفضل نحو ، وأشرف على جباية الضرائب ، وعلى تدريب المجندين حديثا ، وأراقب الأعمال سواء أكانت لموظفين عند جلالته ، أو يعملون لحسابهم .

لم تكن الأخشاب تقطع إلا باذنى . للاخشاب قيمتها التى يعرفها أبناء القرى ..

أعفيت الفقراء من الضرائب المثبتة بأسمائهم ، ولم أنفذ نظام السخرة الا لضرورة ، ولا أرهقت أهالى القرية بالظلم ، أو ابتززت أموالهم ، أو أخذت ما ليس لى فيه حق ، وأحسنت إلى الناس بما وسعنى .

لم أفرق بين غنى وفقير ، وابتعدت عن المحاباة . أعاقب المذنب على جرمه ، وأبرىء البرىء مما نسب إليه ، وأروع المشاغب ، وأحمى الضعيف والخائف واليتيم والأرملة . وكنت أعرف أن الميل إلى أحد المتخاصمين رجس عند الآلهة . وعندما يلتمس أهالى القرية استعمال

الرأفة لمن يرون أن ظروفه قاسية ، فانى كنت أعيد النظر فى الغرامة المقررة ، أو أفسح بعض الوقت أمام المخالف كى يدبر قيمة الغرامة ..

لم أعاقب إنساناً لوازع شخصى ، أو لارضاء نزعة فى داخلى ، أو بهدف التشفى والانتقام ، أو بما لا يتفق مع تعاليم «ماعت» ولا اتخذت حكماً يخالف القوانين ، ولا حكمت أبداً بين متقاضيين بحيث يسلب امرؤ من حقه ، أو يحصل آخر على ما ليس له .
وحين كان الخطأ يصدر عن امرأة ، فانى كنت أكتفى باركاعها على ركبتيها ، وأضربها على الكتفين بعصاً قصيرة ، وسيلة للعقاب تعلمتها من سادة القرى الأخرى . وتعلمت وسيلة عقاب الرجل : يوثق أتباعى يديه ورجليه من خلاف ، ويكبونه على وجهه ، وأنهال عليه بما أقدره لعقابه ..

أما من يقسم بحياة جلالته ، فانه يواجه أمر الملك بجدع أنفه ، أو صلم أذنيه . وقد يوضع على الخازوق . وكان الاعدام عقوبة شاهد الزور ، ومن يقتل النفس بغير حق ، ومن يقتل المواليد أو الأجنة بعد أن ينفخ فيها الاله الروح . كما تطبق عقوبة الاعدام على الابن العاق الذى يقتل أباه أو أمه ..

كان غاية العقوبة التى أذن لى جلالته باستخدامها ، أن أقضى بجلد المدان ثلاثين جلدة ، وأحرمه من الأكل أربعة أيام متوالية . أما من يرتكب جريمة عقوبتها أشد ، فانى أضع القيود فى قدميه ويديه ، ويضرب بالعصا فى كل جسمه ، ويستحلف باسم جلالته ، فلا يقول غير الصدق ، والاحل به العقاب الصارم . فإذا ثبت كذبه ، اقتيد مكبلاً ، فألقى تحت قدمى جلالته ، يفحص جرائمه بنفسه ، يناقشه فيما وجه إليه ، حتى يتأكد من إدانته ..

لقد صار كل موظف مستقراً فى عمله ، وكل فلاح آمناً فى حقله ، والناس يسيرون فلا يلتفتون إلى الوراء ، والرجال إلى جانب زوجاتهم ، والأطفال ينامون بطمأنينة فى صدور أمهاتهم . وخلت الأرض من صناع الشر ، ولا أحد يلجأ إلى العنف ، وكان المسافر ـ إذا أتى الليل ـ يستطيع أن يتمدد على جانب الطريق ، أو تحت شجرة ، فلا يزعجه أحد ، أو يؤذيه ، أو يضايقه بما لا يليق من الأسئلة ..

السؤال السابع والثلاثون

قال أوزوريس :

- هل صورتك التى انعكست فى قلبك طيبة مشرقة ؟

قال زاو مخو :

قسما بحياة الآلهة ، انى لم أعترض طريق إله فى موكبه ، وفعلت ما هو حق وعدل ، ولم أرتكب ذنباً ولافعلت خطيئة ولاقمت بالشر ، ولا اتهمت انساناً بالزيف ، وفعلت كل ما من شأنه أن يرضى قلوب الآلهة ..

لم أتسبب فى حرمان أحد من حق له ، ولا قدمت مصلحتى الخاصة على واجبى ، ولا منعت الماء فى موسم جريانه ، ولا أقمت سداً فى مجراه ..

لم أنطق بأى شىء قبيح ، ولانقلت - أو حاولت أن أنقل - كلاماً خبيثاً وكنت أضع أسرار الأخرين فى صدرى ، فلا تغادره أبداً .

لم أسرق ، ولم أقتل ،ولا ارتكبت أى عمل قد يعذبنى ضميرى لتذكر أحداثه ، ولا اعتديت على حيوانات الآلهة ، أو أسماكها ، أو طيورها ، ولا منعت الماء الجارى أثناء الفيضان .

كانت غايتى أن يكون مظهرى حسناً ، وحالتى مما يقنع الآلهة بالانصات لكلماتى .

كنت أبا باراً بأسرتى ، فأنا لا أغادر قريتى إلا إلى العاصمة «بى رمسيس» تلبية لأوامر جلالته . أجالس ميرية وأبنائى ، وأخالط الفلاحين ، وأخرج إلى الصيد ، وأخصص وقتاً لسماع المتقاضين ، فأفصل فى خصوماتهم ..

لم يتبدل قلبى نحو ميرية الا عندما تحول قلبها . صارت امرأة أخرى غير التى أعرفها . ليست هى التى استهوانى جمالها ، وأحببتها ، وعانقتها ، وأصبحت أماً لاولادى . تعددت ملاحظاتها على تصرفاتى ، واتهمتنى بالكذب واستغلال الفلاحين ، والوشاية ضد هيرا بما لم يرتكبه . ثم فاجأتنى باصرارها على الطلاق

لم أخذها بالظن ، ولا أذيتها بوشايات باطلة . صارحتنى بما فعلت ، وحصلت على رسائلها ، وعرفت من خادمى نيامون عن أحوال الرجل

مانيروس ما لم أكن اعرفه .

لم أوثر نختى بحبى إلا لأنه كان بالفعل أفضل من أخوته . نشأ فى قصر الملك ، وفى صحبة الأبناء الملكيين . تأثر بالعادات الجميلة ، وحاول تقليدها . وهو ما لم يتح لأخوته الذين أفسدهم الاقتراب من المزارعين والصناع ، وقالوا نص كلماتهم .

كان أسعد أيامى حين قدمت إلى جلالته فى «الحب سد» والعيد الثلاثين لتوليه عرش البلاد . أثبت جلالته فتوته ونشاطه ، وقدم له السراة الهدايا الجميلة ، فخص هديتى باعجاب واضح ، ووجه لى العبارات الجميلة ..

كنت أفعل دائماً ما يحبه جلالته ، ويمتدحه ، ويأمر به .

ألا بوجهى ، انى رفعت صوتى بالدعاء للاله العظيم ، وقدمت القرابين ، وأعطيت السائل ، وأطعمت اليتيم ، وقبلت العظيم والحقير فى حضرتى ، لكن الذى أعطيته ، نهبنى ، ومن أطعمته عض يدى ، ومن استقبلته فى حضرتى كان يخفى الغدر وراء ظهره .

أما الذين بلا صوت ، ولم يقدموا القرابين لأنهم عاشوا من الصدقات التى وهبتها لهم ، فانهم اكتفوا بالشائعات الهامسة ، والباس أثواب الخطيئة لكل ما فعلت .

ان المكانة الطيبة لها ضريبتها التى يجب على المرء أن يدفعها بطيب خاطر .

السؤال الثامن والثلاثون

قال أوزوريس :

ـ هل صادقت قلبك ، واستمعت إلى صوت ضميرك .. فكانا رقيبين على كل ما فعلته ؟

قال زاو مخو :

بحق حياتى الخالدة ، ان كل من وضع حجرا فى بيتى الأبدى ، نال أجره بما أرضاه ، وألهج لسانه بالدعاء للآلهة أن تنصت إلى دفاعى فى محكمة الغرب .

لم أسخر أحداً ، ولا فرضت عليه عملاً لا يقبله ، ووفرت للعمال كل ما

احتاجوه من خبز وجعة وثياب وزيت وقمح ، فظلت أصواتهم تعلو بالغناء الجميل ، حتى اكتمل بناء المقبرة .

أرضيت كل من عمل فى بيتى الأبدى ، سواء أكان رئيساً للعمال ، أم حاملاً للطوب والرمال . قدمت لهم الطعام والشراب ، وفتحت لهم مخازنى ، يأخذون منها ما يحتاجون . لم أحاسبهم بما سجله الكاتب إلا عندما انتهى العمل تماماً .. أخذوا ما لهم ، ودفعوا ما عليهم . لم أفرض على أحد عملاً يشق على جسمه القيام به .

أوقفت جزءاً من ثروتى على ضمان امداد القرابين الجنازية فى بيت الآخرة ، والنفقات التى يطلبها من يخدمون القبر ، خدمة «الكا» ، يأتون كل صباح بموائد القرابين ، ويسكبون على المطهر حاجتى من الماء .

نقشت الكلمات على جدران بيتى الأبدى ، تتوسل إلى كل من يمر بى - حين أخلد فى عالم الغرب - أن يردد الصلاة الجنازية لى . أما من يدخل المقبرة كأنها ملك له ، فقد دعوت الآلهة أن تحاكمه على فعلته الشنعاء ..

قدمت للآلهة قرباناً - كل عام - خمسة آلاف رغيف من الخبز ، وخمسمائة قدح من الجعة ، وعشرة عجول ، وخمسة أوزان من البخور .
ألا بوجهى ، انى لم أستعمل القوة مع أى كان ، ولا ظلمت رجلاً أو امرأة ، وأعطيت الأرملة ، كما أعطيت المتزوجة ، وتلك التى لم تبلغ سن الزواج بعد ..

وبعد أن رحل ايتسن - الرجل الذى حاول تدمير أرضى - إلى دنيا الغرب ، لم أسجن زوجه ، ولا أخذت أولاده رهائن . احتسبت ما أتلفه وديعة عند الآلهة . وعرضت على المرأة أن تعمل بإحدى الوظائف المتاحة للنساء ، فتصبح كاهنة ، أو قابلة أو ندابة أو راقصة ..

قلت عندما التقيت بها على رأس قطعة أرض خصصت لدفن الصقور وأبى قردان :

- ما بيننا من خصومة لا شأن له بمسئوليتى عن القرية ..
قالت فى حزنها :
- لقد مات من كان مسئولاً عنى ..
قلت :

ـ أخطأ ، فدفع ثمن خطئه ..
مازج حزنها غضب :
ـ حاسبته على تصرفات ماشيته ..
قلت :
ـ كان يسوقها إلى مزارعى لتدمرها ..
فاجأتنى بالسؤال :
ـ ألم تعرض عليه أن يبيع لك أرضه ؟
قلت :
ـ رفض ، لم أناقشه ..
وهى تهز رأسها بعصبية :
ـ لقد قتلته ! ..
ـ لم أفعل إلا أن دافعت عن نفسى ..
صرخت :
ـ تقتل ؟!
دون أن أجاوز الهدوء :
ـ كان يريد قتلى ، فدافعت عن نفسى ..

قسماً بحياة الآلهة ، انى لم أستعمل مكيالاً منقوصاً ، ولا ذراعاً ناقص الطول ، ولا زحزحت لسان الميزان ، ولا بدلت أو غيرت الحدود بتناول اللحوم فى غير الأيام المخصصة لتناولها ..

السؤال التاسع والثلاثون

قال أوزوريس :
ـ هل تبدى لك أن كل مرحلة من حياتك قد أفضت إلى مرحلة أخرى ؟
قال زاو مخو :
ـ كانت حياتى خيراً متصلاً ، منذ ولدتنى أمى فى حياة البشر ، حتى رحل قاربى الى الشاطىء الغربى .

التربية الصحيحة التى تعهدتنى بها أمى ، والوصايا التى طالما استمعت إليها من أبى ، كانت لى نبراس حياة ، فلم أكذب ، ولم أغتب ، ولا تجسست من وراء الأبواب ، و أكلت قلبى فيما لايجدى من أسى . وسبحت

بحمد الاله ، وأنشدت له التراتيل ..

قبل أن احقق المكانة التى أصبحت عليها ، كنت أعتمد على ساعدى ، وأحرث بماشيتى ، وأتنقل بقاربى . ولم ألجأ - ذات يوم - إلى ما يمتلكه غيرى . إنما اعتمدت - دائما - على ما تمتلكه يداى ..

وحين انتقلت من بيت أبوى إلى بيتى الخاص ، المستقل ، كان تصورى أنى وفقت فى اختيار المرأة التى تصلح شريكاً لى فى الحياة ، وأما لأولادى . واذا كانت الغواية اللعينة قد دفعتها بعيداً عنى ، فهجرت حياتى المثمرة ، الوادعة ، إلى حياة أخرى ، زين لها السير فيها رجل شرير ، إن كنت أنزلت به ما تقتضيه عدالة الآلهة ، فانه لابد أن يكون قد نال جزاء جريمته الشنعاء عندما مثل أمام المحكمة .

ان رعايتى لأبنائى كانت مثلاً لكل الآباء فى «ونيس» ..

تعهدت حررة ، ابنتى الوحيدة ، حتى تصبح فى المستقبل زوجاً فاضلة ، وأماً لأبناء طيبين ، وان قيل أن حررة ظلت معى ، فلم تهجر بيتى ، لأننى كنت أغض الطرف عن علاقة لها بفلاح فى مزرعتى ، وأنها لم تكن - فى معظم الليالى - تنام فى سريرها ..

وكان ذلك ادعاء سخيفاً ..

كان يوفانخ خادماً لابنتى ، خصصته لرعايتها ، والتنقل وراءها ..

وكانت الغيرة التى تمقتها الآلهة ، دافعا لقسوتى على أبنائى الثلاثة أوبا وسنموت وناخت . أردت أن أجنبهم عقاب المحكمة المبجلة ، حين يمثلون أمامها .. فسروا رعايتى لشقيقهم نختى بغير حقيقتها . قالوا انى أفيد منه فى التقرب إلى الملك مرسو رع .

ولم يكن ذلك صحيحاً .

نذرت نختى ليكون جندياً فى جيش جلالته . أعددته جيداً بحيث يصبح ـاراً على كل من تسول له نفسه الخروج على طاعة الملك ، داخل البلاد وخارجها . أحببته لانه أحب مولاه . واجه أعداءه وقتلهم وبدد شملهم ، وعاد بأسلابهم وأسراهم ..

وعندما حقق نختى انتصاراته ، فانه استمع لنصائحى . لم يهون من شأن معبودات الأعداء ، ولافقأ عيون قادتهم ، ولا جعل من جماجمهم

مشاعل يوقدها فى احتفالات النصر ، ولاجعلها كئوسا للشراب ، ولا أجبر أسراه على منازلة الوحوش الفاتكة .

وحين توليت أمور الاقليم ، فقد كان ذلك بأمر من جلالته ، لا لتصرفات خسيسة أو لمؤامرات من جانبى . تأكد الملك انى أجدر الجميع بأن أكون ممثلاً له فى الاقليم . أنزل ابن الآلهة عقابه الصارم بهيرا ، لأنه خالف مقتضيات منصبه ، وخان الامانة ، ونسج المؤامرات ضد حكم جلالته ..

وبعد أن زادت أعمال السلب والنهب ، وصار المجرمون هم الكثرة ، بينما لزم الأخيار بيوتهم ، لا يغادرونها . لجأت إلى القوة التى خصتنى بها الآلهة ، وإلى قوة أتباعى ، فطردت الشر بعيداً عن الأقليم ..

أنا لم أهاجم أعدائى الا بعد أن صرت فى أفواههم أنياب الشر . رددت اعتداءاتهم ، وسبقتهم إلى الاعتداءات التى كانوا يدبرونها . لم أنتظر حتى يدخلوا بيتى ، ويقولون : هانحن أولاء ! قضيت على تدبيراتهم قبل أن يخضعوها للتنفيذ ..

لقد استقر الموظفون فى مناصبهم ، فلم يعودوا يخشون العزل ولا النفى ولا الايذاء ، وأقبل الفلاحون على زراعاتهم وهم يغنون . وقاد الرعاة مواشيهم إلى الخلاء دون خوف من الذئاب ولا الحيوانات المفترسة . وقال الناس : هذه هى الأيام الجميلة . هذا هو العهد الآمن الذى طال ترقبنا له !

وعندما كان النيل يتأخر عن موعده ، فإنى كنت أصلى للاله حابى ، وأقدم القرابين فى معبد القرية . وكان الاله يستجيب فى كل مرة .

فتحت - فى الأيام العصيبة - أبواب خزائنى ومخازن غلالى .

لم أذنب فى حق الملك أبداً . وكان اخلاصى فى خدمة جلالته مما يشهد به الجميع .

لم أسىء التصرف ، ولا حابيت ، ولا انتصرت لقوى على ضعيف ، أو لظالم على مظلوم ، وأمرت أتباعى ، فهم يحرصون على جباية جميع أنواع الضرائب المقررة بمقتضى اللوائح والقوانين ، والحصول على كل الأموال والمستغلات للخزانة العامة . وحرصت على أن أكون كفئاً لجلالته ، وفعلت كل ما يحبه بأداء الأوامر ، وتنفيذ القوانين .

كانت أحكامى فى إطار القانون ، فحصل كل إنسان على حقه ، لم أبرىء أحداً لقربه منى ، أو لنفوذ يتمتع به ، ولا جرمت أحداً لأنه فقير .

وكنت أعلم أني اذا حرصت على العدالة ، فإن العدالة أبدية ، وهى تنزل مع من أقامها فى الأرض .

أصدرت حكمى بجلد رجل ثلاثين جلدة ، لأنه أساء معاملة زوجته ، وسبها أمام الآخرين ، وهددته بمصادرة أمواله فيما لو عاد إلى ما فعله ..

كل الأموال التى جمعتها ، وأنفقتها ، فى حياتى ، وتركتها لأكبر أبنائى بعد أن جاهر أخوته بعدائهم لى ، لأنى كنت ـ لمصلحتهم ـ أقسو عليهم .. كل تلك الأموال من جهدى الذى بذلته ، فلم أسرق ما يملكه غيرى ، ولاسطوت على ثمار الآخرين ، ولا أودعت فى خزائنى ما يجب أن يكون فى خزائن سواى ..

وهبت نختى كل ما حققته من أموال وأراض ، تقديراً للمكانة التى بلغها ، وللاحترام الذى ناله من الجميع .

وحين هجرت ميرية ، كان ذلك فى حدود العرف ، ولم أعاملها بغير ما تستحق ..

أما اتهام المرأة «دوات نفرة» بأنى أجبرتها على مضاجعتى ، فهو دليل على انى استخدمت ما وهبته لى الآلهة من قوة فى فعل الخير . لو أنها أسلمت ساقيها لزوجها ، فان ابنهما كان سيولد فى ضعف أبيه . ولما رضخت لتوسلاتها ، ووهبتها نطفتى ، فانى كنت أضع القوة التى أمدتنى بها الآلهة فى الحقل الذى خصصت له .

قسماً بحياة الآلهة ، انى لم أترك عملاً ينطوى على الخير دون أن أقدم على أدائه . خضت معارك كثيرة ضد أعداء ملأ الشر نفوسهم ، وانتصرت لأن قلبى كان متجهاً بحبه إلى الآلهة . لم ينل منى الخوف ، ولا أحسست بالفزع ، لأنى كنت أتذكر الآلهة ، وما قدمته لها من قرابين وأدعية ..

أما الذين سعوا لانهاء حياتهم بواسطة خدمى وأتباعى ، فانهم مسئولون عن مسعاهم ، لم يفعل الخدم والأتباع إلا أن نفذوا ما تقضى به أحكام الآلهة ضد هؤلاء الذين شغلهم الشر .

السؤال الأربعون

قال أوزوريس :

ـ هل أخلصت فى رعاية النبات الذى كان ـ ذات يوم ـ أخاك . سقيته وأطفأت ظمأه ، وتعهدته منذ كان بذوراً صغيرة ، حتى نما وصار نباتاً ..

قال زاو مخو :

ان اوزوريس المبجل هو إله الزراعة . الموت ، فالحياة مرة ثانية . سنابل القمح تنبت فى جسده ، وهو الشجرة الوفيرة الثمار ، والأرض السوداء التى تهب الخضرة .

أوزوريس هو الحياة التى لا تفنى ..

كان النبات هو مصدر رزقي . هو الذى جعلنى من أنا ..

لم اكن ـ قبل أن أحوز أرضاً ـ غير متردد حائر ، يواجه الأيام بنفس خائفة ..

النبات هو الذى جعل لى مكانة طيبة فى قريتى ، وصوتاً مسموعا فى قصر الملك . وكانت رعايتى له ، لأنه كان يجب أن أفعل ذلك ..

الراحل إلى دنيا الغرب يحتاج إلى النبات فى بيته الأبدى . بدون النبات يصعب على المرء أن يحيا بعد الموت ، أو يتمتع بما اكتنزه فى مقبرته .

أحببت نبرى إله الحصاد ، وزرعت الحبوب والمحاصيل فى كل الأرض التى تصلح للانبات ، وتعهدتها بالتسوية والزراعة والرى ، حتى يتألق المحصول فى امتدادات النظر . انه هو الأكثر فائدة من ذهب العالم ، لأن الانسان لن يأكل ذهباً ..

حرصت على أن أزرع إلى جانب البردى ـ محصولى الرئيسى ـ القمح والشعير والبوص والتين والكروم والزيتون ومحاصيل أخرى كثيرة ، لا تحصى ..

خلق الله النبات والحيوان والطير والسمك ليأكلها الناس ، لاليقضوا عليها أو يهملوها .

كنت دائم التجوال على الحقول . أراقب الفلاحين ، وأعنى بالنبات ، وأحدد نموه ، حتى يبلغ تمام نضجه ، وأقف على رأس كل حقل حين يأتى أوان الحصاد .

ولأن القمح والشعير كانا يتصلان بأوزوريس المقدس ، إله الزراعة والانبات ، فقد حرصت على تقديسهما .. وكنت أعتبر الخبز مقدساً ، وأقدمه قربانا للآلهة . وقدست الكتان ، وأوصيت أن يلتف به جسمى عندما يأمر أوزوريس الموقر باستدعائى إلى محكمة الآخرة ..
أحببت الأشجار ، وأحببت الزهور والورود ، واعتبرت النبات سراً من أسرار الآلهة .

وكان أشد ما اجتذبنى إلى ميرية زهرة لوتس زينت جبهتها ، فأبانت وضاءته ، وجمال العينين ..

وقبل أن تصبح ميرية زوجاً لى ، فإنى كنت أذهب إلى بيتها فى مدينة بوتو كل صباح بباقة من الأزهار ، اختارها بنفسى من حدائق ونيس ..

وحين اخترت «حررة» اسما لابنتى ، قالت ميرية :
ـ كنت أفضل لها اسمى ..
قلت :
ـ اسمك جميل . وأنا أريد أن تضيفى إلى أسرتنا اسماً جميلاً آخر ..
استطردت متسائلا :
ـ الا تعرفين أنى أحب أسماء النبات ؟

السؤال الحادى والأربعون

قال أوزوريس :
ـ هل عاملت الحيوان والانسان الذى هو أقل منك مكانة .. كما أردت أن يعاملك من هو أعلى مكانة منك ..

قال زاو مخو :
تعلمت ـ ولعلى كنت مخطئاً ـ ان الناس لا يخضعون إلا لمن يخشون بأسه ، ينصتون إلى كلماته ، وينفذون أوامره ، ويعتبرون تواضعه كأنه هبة من إله ..

لقد جعلت أهل القرى يحيون حياتهم . لم أفرض عليهم إرادتى ولا ماأرغبه ، ولا أوفدت إليهم رسولاً مثلما فعل ابيى . أشدد فى اسكات

أفراس النهر ، فلا تعلو أصواتها وتحرمنى النوم ، ولا ادعيت بحيلة الذئب حين ادعى على الحمل انه يمنع وصول الماء اليه . عنوا بزراعاتهم وحرفهم ، وخرجوا إلى الأسواق ، وقايضوا على ما يبيعون ، وأمضوا الأمسيات ، واحتفلوا بأعياد الآلهة والمناسبات المهمة ، فلم أعكر عليهم صفو حياتهم ، ولا وضعت الحدود للأفعال التى يمارسونها ، وان حرصت على التشدد فى تعاقب التقاليد من آبائنا ، فصاحب المكانة المرتفعة يجب أن يلمح ذلك فى عيون الآخرين ، وفى تصرفاتهم أيضا . إذا سار فى الطريق ، تنحوا جانباً ، وأفسحوا له خطواته ، وينهض الرجال الأقل مكانة حين يقبل عليهم ، ويبدأون التحية ..

وكنت أطرد من يقف أمامى ، فيشمخ بأنفه . فأنا ممثل جلالته ، وعلى الجميع أن يعبروا - باحترامى - عن احترامهم له ..

ومثلما أحببت الانسان ، فقد أحببت الحيوان والطير والسمك والنبات ، وكل ما خلقته الآلهة ..

خلقت الآلهة العشب لتطعم الحيوان ، وخلقت الشجر للبشر ، وجعلت فى الماء حياة للأسماك ، ولطير السماء ، وأحيت الفرخ فى العش ، والطير على الشجر . حتى الهوام والزواحف فى الجحور ، وفرت لها الآلهة ما تأكله ..

كنت أحب حياة الطير فى تغريدها ، وانطلاقها ، وبناء أعشاشها ، والأسراب التى تملأ وجه السماء .

أشدد على خدمى وأتباعى ، فلا يصطادون طيور الآلهة المحلقة فى السماء ، ولا الأسماك داخل النهر والبحيرات والمستنقعات ..

وأترك الماشية فى المراعى الهائلة بين المستنقعات . أزرع لها الأعلاف ، وأطعمها بيدى ، وأوفر لها الماء الذى ترتوى منه ، وأستحثها على الشرب ..

ولأن الفلاح يفضل الاقامة بجوار الحيوان ، فقد أغضيت الطرف عن أوامرى بأن يستريح الحيوان فى الحظائر ، ويذهب الفلاحون إلى أكواخهم . لم أسأل خدمى إن كانوا يتركون الفلاحين فى حظائر الحيوان ، يشاركونها الاقامة والنوم .

أما ماشيتي ، فلم أكن أخفي اعتزازي بها ، وبما تضمه مزرعتي من حيوان وطير . أطلقت على ثيراني وأبقاري أسماء جميلة ، ودللتها ، وزينتها بقلائد من زهور اللوتس ، وبالخرز والتمائم والأغطية الزاهية الألوان . وعلقت في رقابها جلاجل وعقوداً زرقاء لمنع الأعين الشريرة ، فلا تنالها بالأذى ، وربما تحدثت إليها كبشر تصغى وتفهم .

ان الذى يذبح ثوراً ، عليه أن يطمئن إلى نفاد لحمه فى ثلاثة أيام حتى لا يفسد . الآلهة تحاسب ذلك الذى يذبح الحيوان دون أن يضع حساباً لأكله . وكنت أذبح ثوراً كل يوم ، يوزع لحمه على أتباعي وخدمي ، وأرسل البقية إلى المعبد ، بالاضافة إلى ما كنت أخصصه للمعبد من لحوم ..

حتى الحيوانات فى الصحراء ، والطيور المفترسة ، قدمت لها لحوم الماعز التى كنت أضحى بها ..

لم أقدم على أكل حيوان مما يقدسه أهل اقليم آخر ، فلا أتسبب فى حرب كالتي نشبت بين البهنسا وكينوبوليس .. أكل اهل كينوبوليس سمك القنوم الذى يقدسه أهل البهنسا ، فذبح هؤلاء ما كان لديهم من كلاب ، وأكلوها . وحارب أهل البهنسا غضباً على ذبح الكلاب التى يقدسونها ..

كنت أثق فى قداسة العجول والتيوس والبقر والصقور والتماسيح والثعابين . الروح تدب فيها بواسطة الاله ، فهى أرواح إلهية ..

ومثلما يمتنع الكهنة عن استعمال صوف الشاه ، ويعزفون عن لحمها ، كنت أفعل ذلك . مع أنها كانت ضمن الماشية التى أربيها فى مزرعتى ، فانى لم أكن أقربها ، أكتفى باطعامها ، ثم يحملها الخدم الى السوق ..

وحتى لا أعرض ماشيتى للألم ، كنت أرفض كيها بخاتم محمى فى النار ، فلا تختلط بماشية الآخرين .

قال لى ايتسن :

ـ أنت تمنع ختم الماشية حتى تسطو على كل ماشية المراعى .

قلت :

ـ السطو كلمة أرفضها ..

قال :

ـ فلماذا تمنع فلاحيك من ختمها ؟

قلت بصدق :
ـ أشفق عليها من ألم الكى ..
مصمص شفتيه :
ـ ليتك تشفق على فلاحيك مثلما تشفق على ماشيتك .
غلفت صوتى بنبرة تحذير واضحة :
ـ ليتك تشفق على من قسوة كلماتك !
فاذا مات أو نفق حيوان معبود كالبقرة والثور ، أمرت اتباعى ، فكفنوه بالكتان والحصير مثلما يكفن الموتى من البشر . ودفنوه فى مواضع بعينها فى مقابر الموتى ..
وقد خصصت بئرا قديمة فى أقصى القرية ، لدفن الحيوانات المقدسة عندما يدركها الموت ..

السؤال الثانى والأربعون

قال أوزوريس :
ـ هذا هو أيها الرجل زاو مخو آخر الأسئلة : هل بوسعك أن تقرر فى صدق أنك لم تجبر رجلاً ولا دابة على العمل بما فوق الطاقة ، وأيقنت أن الآخرين أخوة لك فى رحلتك ، فحاولت أن تسدى لهم العون فى رحلتهم ؟
قال زاو مخو :
زعم الأشرار انى قدمت للكهنة طعاماً وجعة وكساء ، وأخذت شهادة فى بردية بانى كنت رجلاً فاضلاً .
ولم أفعل ـ فى الحقيقة ـ ذلك ..
اتهام يؤذى سمعة الكهنة الأجلاء ، ويغيب عن الصدق بصورة كاملة ..

وزعموا أن الكهنة دونوا لى صيغة سحرية ، شديدة التأثير ، تفضى إلى سقوط رع من سماواته فى النيل ، إن لم أغادر هذه القاعة إلى الأبدية المخلدة .
لم أكن أحتاج إلى أفساد الكهنة ، شراء ذممهم وضمائرهم ، كى أفوز فى المحاكمة ، وأبرأ من كل شر ..
وعندما كنت أصحو على أحلام مزعجة ، كانت أمى تخلط قطعة خبز بحشائش خضراء ، وتبللها بالجعة ، وتضيف إليها البخور ، وتمسح وجهى بذلك كله ، فتمحى الأحلام السيئة ، ولا أتذكرها ..

لقد انقلب على أقرب الناس إلى ، ومن هم بضعة منى ، أو اعتبرتهم أصدقائى . لم أبخل بمال ولا نصيحة ولا مودة . لكن زورقى سار فى غير المياه التى اخترتها له . بإرادة الآخرين ، وليس بإرادتى . بذلوا كل ما بوسعهم ، وأجهدوا أنفسهم الشريرة ، حتى يبتعد الزورق عن المسار الذى أردته له ..

أذانى ما لقيته ، ما جوزيت به - لقاء أفعالى الطيبة - من نكران وعقوق ..

أقبل أهل الشر فى ظلام الليل ، يفسح لهم الطريق ما ترسله أعينهم من شرر الغل والحقد ..

تآمروا - فى الخفاء - على قتلى ، مستترين بظلمة الليل . ولكن الله شاء أن أكشف ما يدبرون قبل تنفيذه ، وأفضح فعلتهم الشنعاء قبل أن يمسنى أذاها ..

كنت أستطيع أن أصارع الجناة منفرداً . أعمل فيهم سلاحى ، وأقطع أجسامهم إلى أشلاء ، وأريق دماءهم النجسة على الأرض . لكن الجلبة أيقظت أعوانى وخدمى . هرولوا قادمين ، فأعملوا أسلحتهم فى أجسام القتلة حتى قضوا عليهم تماماً ، وأسكتوا صراخهم ..

وكانت دهشتى لما تبينت على رأس المهاجمين ثانى أبنائى .. «أوبا»

لقد أنشأته وربيته ، فعضنى بأنيابه الحادة ، وأضراسه السامة ، وحاول قتلى بعد أن وهبته الحياة .

وعلمت أن ميرية - التى أخلصت لها ، وبذلت العطف والود - هى التى دبرت هذا الكيد ، وأشرفت على تنفيذه ، واستدعت الجناة من مدينتها ، وجعلت ابنى على رأسهم .

المرافعة الختامية

قال أوزوريس :

- أتاحت لك المحكمة - بكل سعة الصدر - أن تجيب على أسئلتها الأثنين والأربعين ، فإذا كان هناك المزيد مما تريد ان تقوله ، فإن المحكمة

تصغى اليك .

قال زاو مخو :

يا أوزوريس العظيم . يا من تقدم لك الآلهة القرابين ، ويحنون وجوههم أينما كانوا فى أماكنهم .

هأنذا أمد يدى اليك .

لقد عبرت المحاكمة ، وأذنت لى أن أتكلم .

قسماً بحياة الآلهة ، إنى لم أقل الا الحق . ما حدث كما هو ، بتفصيلاته . لم أضف ، ولم أحذف .

ليقض فمك الطاهر - يا أوزرويس المبجل - بما توصل إليه فهمك الذكى .

أتيت اليك ، قلبى نقى ، صدرى بلا خداع ، فساعدنى على أن أكون بين الأخيار ، فأصعد إلى السماء بين أتباعك ..

إن ما أتطلع إليه أبعد من أن أمنح بعضاً من خبز القرابين الذاهب إلى أوزوريس . لكن تطلعى أن أمنح هبة دائمة من الأرض فى حقول القرابين كأتباع حورس .

اجعل لى كرسياً مع هؤلاء الذين فى العالم الآخر .

أيها الآلهة الذين فى حضرة أوزوريس ..

تفهموا وجهة نظرى ، ودفاعى عن نفسى ، وناصروا براءتى ..

لا تجعلوا الكلمات الشريرة تؤثر فى نفوسكم الطيبة .

أتوسل - بحق مجدكم - أن أدخل وأخرج من العالم السفلى دون أن تنبذ روحى ..

افتحوا عينى اللتين عميتا . ساعدونى على جعل ساقى ثابتتين حتى أقف بهما . أنهض ، فأتمكن من الصعود إلى السماء ، وأحيا مخلداً فى حقل الفيضان السعيد .

لقد فعلت ما فعلت بوحى رأيى ، ومحض ارادتى . لم يدفعنى إلى ذلك امرؤ ولا حادثة ولا نبوءة عراف .

راجعت نفسى وما فعلت ، فأدركت أن روحى لن تخذل جسدى أمام بوابات العالم السفلى ، واننى سأدخل فى سلام ، وسأصل فى سلام ..

اني نقي ، نقي ، نقي .

الندم لا يعتورني على ذنب ارتكبته ، فقد عشت حياتي طاهراً ، ولم أرتكب ما يغضب الآلهة ، فلن تأخذ عممت قلبي اذن ، ولن تلتهمه .

حتى لو كنت قد ارتكبت الخطأ دون أن أدرك طبيعة ما فعلت ، ولا مغبته ، فاني أثق أن عدالتكم ستتيح لي الهرب من كل نار ، فلا تعوقني أفعالي الخاطئة عن دخول الأبدية .

صادق القول ، هي العبارة التي تؤكد براءتي بعد كل ما قلت . تسجلها محكمة الآلهة مرادفة لاسمي ، فأدخل رحاب الأبدية محاطاً بالنور والفرحة ..

فهل أظفر بالعبارة التي أستحقها بالفعل ؟
أيها الاله الفائق العظمة والمهابة ..
أيها الروح المقدس ، والمتوج فوق عرشك ..
أيها الواحد ، المشع من القمر ..
اضمن لي طريقاً ، أعبر عليه في سلام ، فأنا لم أكذب ، ولم أسرق ، ولم أغش ، ولا ارتكبت الخطيئة ..

أنا بلا نقائص . وقد أوليت ظهري كل الأخطاء ، ولم أفعل ما تكرهه الآلهة .

أتوسل إليك أن تمهد لي الطريق ، حتى أصعد إلى السماء دون أن تكبلني أصفاد ، لاتوصد الباب أمام روحي ..

دعني أمتلك القوة في الأبدية ، فأصبح قادراً على الحرث ، وعلى الحصاد ، وعلى تناول الطعام ، وعلى الحب ، وعلى فعل كل الأشياء التي كنت أفعلها على الأرض .

ما أروع ـ حين يحصل المرء على تبرئته ـ أن يسير بخطى واسعة مثل أرباب الخلود ، فقد محى ذنبه بأيدي الآلهة الذين يزنون بالموازين في يوم الحساب العظيم . أدخل وأخرج في عالم الغرب . أسكن حقل يارو . أقيم ماشئت في حقل الطعام ، ذلك المكان الفسيح ، حيث أحرث وأحصد ، وآكل وأشرب ، وأفعل سائر ما كنت أفعله في الأرض ، وأظل ـ كما كنت ـ قوياً ممجداً .

أخلد فى النعيم ، وأنظر فى وجه الشمس ، وأرنو إلى وجه القمر حتى أبد الآبدين .



قال أوزوريس :

ـ هأنتذا قلت كل ما بصدرك ، ما قد يبرئك أو يدينك ..

استطرد قبل أن يجد زاو مخو ما يقوله :

ـ هذا أوان قرار الآلهة : هل الرجل صادق وبرىء ، فيصحب إلى الجنة ، ليعطى الفطائر والخبز ، وحقل القمح والشعير ذا السبعة أذرع . أو أنه مدان ، فلا يدخل مملكتنا ، ويظل فى قبره يعانى الجوع والعطش والوحدة ، أو تأكله الملتهمة ..

وملأ الصوت الالهى قاعة الصدق بالسؤال :

ـ ما قرار الآلهة ؟

تعددت مراجعى فى النواحى التاريخية والجغرافية وصورة المجتمعات فى مصر القديمة ، بما كانت تشتمل عليه من معتقدات وعادات وتقاليد .

ومن أهم المراجع التى استندت اليها : «الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة» لفلندرز بترى ، «كهان مصر القديمة» لسرج سونيرون ، «الحضارة المصرية» لجون ولسون ، «الرمز والأسطورة فى مصر القديمة» لرندل كلارك ، «الديانة المصرية القديمة» لباروسلاف تشرنى ، «الحياة اليومية فى مصر فى عهد الرعامسة» لبيير مونتيه ، «ديانة مصر القديمة» لادولف ارمان ، «تاريخ الحضارة المصرية» ، لمحمد شفيق غربال وآخرين ، «مصر وبلاد النوبة» لوولتر امرى ، «المؤسسة العسكرية المصرية فى عهد الامبراطورية» لأحمد قدرى ، «الموتى وعالمهم فى مصر القديمة» لسبنسر ، «فجر الضمير» لبرستيد ، «الناس والحياة فى مصر القديمة» لدومينيك فالبيل ، وغيرها ..

رقم الإيداع : ٤٥١٣ / ١٩٩٤
I . S . B . N
977 - 07 - 0336- 2



محمد جبريل

● من مواليد الاسكندرية عام ١٩٣٨ .

● تأثر بالبيئة التى نما فيها (حى بحرى بالاسكندرية) من حيث اجوائها الصوفية ، وجغرافيتها البحرية ، وبدا هذا واضحا فى العديد من رواياته مثل « قاضى البهار ينزل البحر » ، علم ١٩٨٩ ، « الصهبة » ١٩٩٠ ، و « النظر الى اسفل » ١٩٢٢ .

● عشق التراث العربى ، وتوغل فى دروبه واستلهم من رواياته « الاسوار » ١٩٧٢ ، « إمام آخر الزمان » ، ١٩٨٤ ، « من اوراق أبى الطيب المتنبى » ١٩٨٨ ، و « قلعة الجبل » عام ١٩٩١ .

● كتب القصة القصيرة ، ومن اعماله « هل » ١٩٨٧ ، ومن دراساته « مصر فى قصص كتابها المعاصرين » ١٩٧٣ التى حصل عنها على جائزة الدولة التشجيعية ، و « نجيب محفوظ صداقة جيلين » علم ١٩٩٣ .

هذه الرواية

ترى كيف ستكون اعترافات زاو نحو سيد القرية عندما ستعقد له المحاكمة النهائية فى العالم السفلى .

لقد جاء يوم الحساب لهذا الرجل الذى عاش طويلا وارتكب الكثير من الوقائع المؤلمة وعليه أن يرد على ٤٢ سؤالا يوجهها له الاله اوزوريس .

ترى هل هو ذلك الشخص النقى المثالى الذى يدعيه لنفسه أمام أوزوريس .. وهل ستكون مبرراته كافية من أجل تبرئته ؟

اجابات تلك الأسئلة وغيرها ماثلة فى اعترافات زاو مخو ، الذى يملك من سحر البيان الكثير ، وفى اجاباته نتوغل الى عالم مصر القديمة ، ويمكن أن نحس ايضا بان ما دار هناك منذ آلاف السنين يمكن أن يحدث فى عصرنا .. وبين أقراننا .

اعترافات سيد القرية ..

محاولة روائية جادة لتوظيف التراث المصرى القديم ، يتوغل فيها الكاتب بمهارة مثلما سبق ان توغل فى التراث العربى فى روايات عديدة .